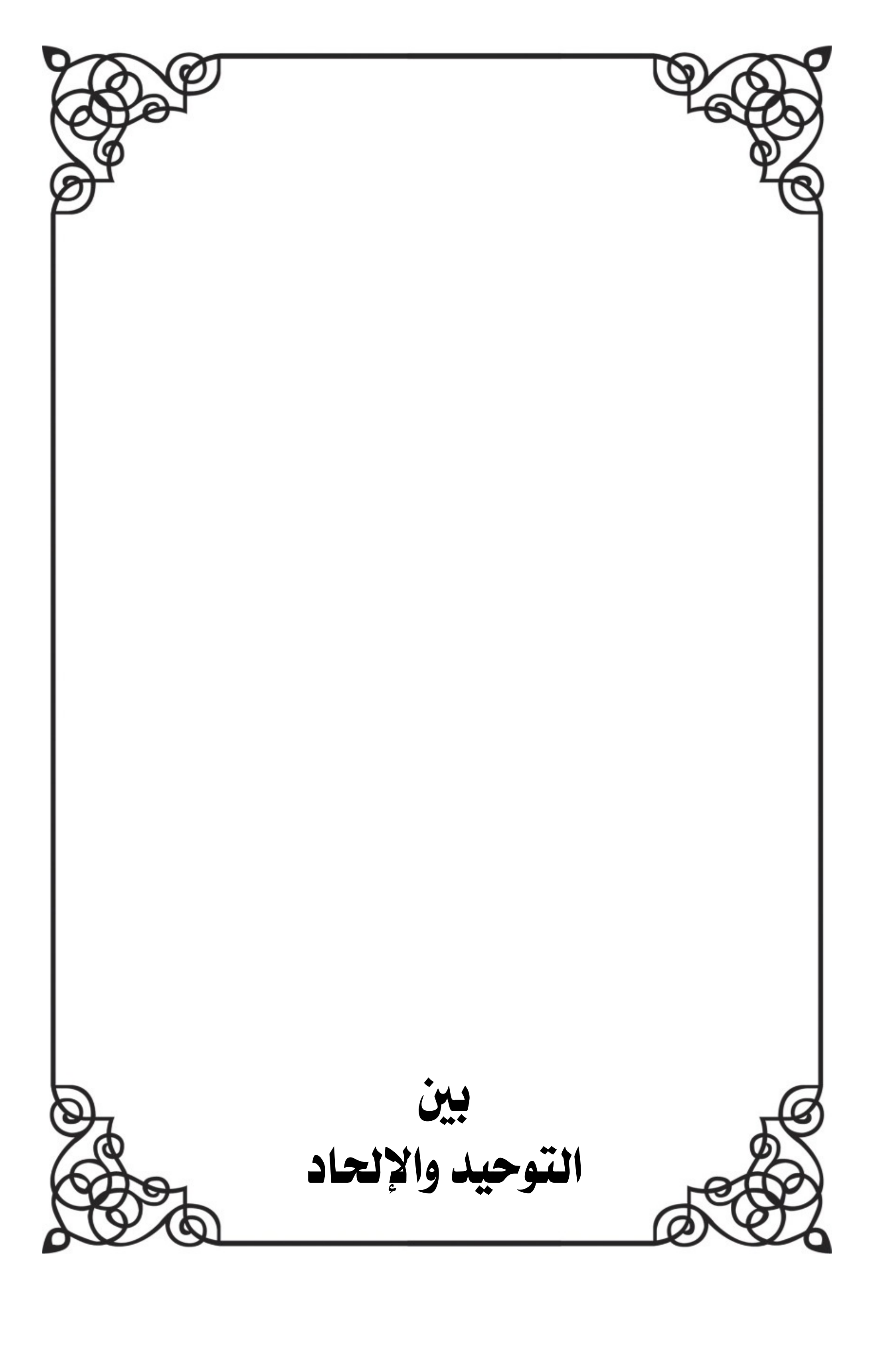
بين التوحيد والإلحاد



تأليف
محمود حسين عوض

تبصير
للنشر والتوزيع
تقريب التراث
والرد على الشبهات



بين
التوحيد والإلحاد



اسم الكتاب: بين التوحيد والإلحاد

اسم المؤلف: محمود حسين آل عوض

الطبعة الأولى: ١٤٣٩ هـ/ ٢٠١٨ م

الطبعة الثانية: ١٤٤١هـ/٢٠١٩ م

مقاس الكتاب: ١٧ × ٢٤

عدد الصفحات: ١٥٢ صفحة

رقم الإيداع: ٢٦٩٧٣/ ٢٠١٨م

الترقيم الدولي: ٤ – ٨ – ٨٥٤٥٧ – ٩٧٧ – ٩٧٨



العنوان: ٣ شارع مسجد الفرقان – القناطر الخيرية – القليوبية جمهورية مصر العربية

التليفون: 01102260020 – 01019757010

website: http://tbseir.com twitter: @tabseir Fb: @tbseir

Email: tabseir@gmail.com



بين التوحيد والإلحاد

تأليف

محمود بن حسين آل عوض

عفا الله عنه، وعن والديه





قال الله تعالى:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥ ﴾ [النساء: ١٧٣ - ١٧٥].

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليٌّ من الذل، والصلاة والسلام علىٰ الذين يبلِّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلَّا الله، ورضي الله عَمَّن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

أمّا بعد: ففي صراع قديم جديد تبدو لوائحه وتظهر للناظرين ضوارمه، يسطو أعداء الحق فيه علىٰ بدهيَّات العقول، ويتغافلون عن مسلَّمَات الفهوم، ويستبيحون فيه المغالطات، ولم لا! فإن عنوان الباطل في هذه الجولة: لِمَ لا يخرج الإنسان عن إنسانيته وعقله، فإنه حيوان ناطق! في هذا الصراع القديم الجديد ترىٰ عجبًا؛ أقلامًا تكسر عمدًا، وراياتَ تُرفع بغير وجه حقٍّ!

ومتىٰ وجدتَ في المتصارعين رغبة في كتم قول المخالف وتزييفه؛ فلتعلم أنه لا مجال للعامة - بل لبعض الخاصة! - أن يصلوا إلىٰ شيء ذي بال في معرفة السجال معرفة واضحة؛ فالتزييف سبيلٌ رئيس في إضاعة الحقِّ وتضليل أتباعه، ولذلك وجب علىٰ دعاة الحقِّ أن يبثُّوا حوارًا هادئًا، وسجالًا علميًّا واضحًا يقارن بين صور متقابلة بين طائفتين متناحرتين، وحينها يتبيَّن للناظر أيّ السبيلين أجدر وأنفع، وأيّ الفريقين أحق بالأمن.

هذه ورقات كتبتُها مخاطبًا بها العقلاء في كل سبيل، وبكل طريق؛ عساهم يتأمَّلوا المصير المحتوم الذي به ينتهي الطريق(١)، **فعلىٰ الموحِّد أن يعلم**: إلىٰ أي غاية يسير، وإلىٰ أي مقصد يؤُمُّ(٢)، ولا يغفل طريقًا قد تنكَّبه وابتعد عنه، ولا يغفل حال السائرين فيه ومآلهم - أيضًا -، وليس الموحِّد فحسب من عنيت بهذه الوريقات، **بل الملحد أيضًا**؛ فإنه إن أراد بمحض اختياره شيئًا فعليه أن يفهمه بدءًا، وإلا فدعوىٰ الحرية في اختيار المصير والطريق لا تغني من حقيقة الأمر شيئًا؛ فإن قبيحًا بالرجل أن يُشيد باختياره طريقا يمحق فيه اختياره! أو أن يشيد بدعوىٰ التعقُّل طريقا يقضي بتغييب العقل وإهماله!!

ولا يفوتني أن أقف ناصحًا إخواننا المشاركين في هذا الصراع بأن يدرسوا ويتئدوا ويبتعدوا عن سطحية العرض والنقد، فليس جديرًا بالمسلم أن يقع في المغالطات بقصد أو بغير قصد، وأُذَكِّرهم بقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٢، ١٥٣].

---

(١) فإن الصراع في ذروته يكمن فيما بعد الموت، والموت واقع لا ينكره أحد وما بعده مؤثر بلا شك فيما ينبغي أن يكون قبله، والعكس –كما يعتقده أهل الإيمان بالله تعالىٰ–.

(٢) يؤُمُّ: يتوجه.

فإن تأملوا هذه الآيات، وكيف أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فيها بالعدل والتزام الحق، وتأملوا قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

علموا أن الله تعالىٰ «يأمر عباده المؤمنين أن يكونوا ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، والقوَّام صيغة مبالغة؛ أي: كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط الذي هو العدل في حقوق الله وحقوق عباده، ومن أعظم أنواع القسط: القسطُ في المقالات والقائلين؛ فلا يحكم لأحد القولين أو أحد المتنازعين لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يجعل وجهته العدل بينهما.

والقيام بالقسط من أعظم الأمور وأدلها علىٰ دين القائم به، وورعه، ومقامه في الإسلام؛ فيتعيَّن علىٰ من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نُصْب عينيه ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كلَّ مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به.

وأعظم عائق لذلك اتباعُ الهوىٰ، ولهذا نبَّه تعالىٰ علىٰ إزالة هذا المانع بقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ﴾ [النساء: ١٣٥] أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق؛ فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب، ولم توفَّقوا

للعدل؛ فإن الهوىٰ إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتىٰ يرىٰ الحق باطلًا والباطل حقًّا، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه؛ فمن سلم من هوىٰ نفسه وفِّقَ للحقِّ وهُدي إلىٰ الصراط المستقيم.

ولما بيَّن أن الواجب القيامُ بالقسط؛ نهىٰ عمَّا يضاد ذلك، وهو ليُّ اللسان عن الحق في الشهادات وغيرها، وتحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه، أو من بعض الوجوه، ويدخل في ذلك تحريف الشهادة وعدم تكميلها، أو تأويل الشاهد علىٰ أمر آخر، فإن هذا من اللي؛ لأنه الانحراف عن الحق. ﴿أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ [النساء: ١٣٥] أي: تتركوا القسط المنوط بكم؛ كترك الشاهد لشهادته، وترك الحاكم لحكمه الذي يجب عليه القيام به»[١].

ومن هنا تعلم أن منهجيَّة الإسلام هي المقارعة بالحجج، لا المغالطة علىٰ الحجج، ويكفي إيضاحًا للباحثين - سواء كانوا موافقين أو مخالفين - قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مخاطبًا المشركين ومنكري النبوات والشرائع: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (صحيفة: ٢٠٩)، للعلامة السعدي - بتصرف يسير -.

فدعاهم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للبرهان في أعظم شيء ينكرونه، وهو أخص خصائص الأديان، وهو بداية الخلق وتدبير الخالق شئونه، وهنا تعلم أن قوة الإسلام العظيم مستمدة من البراهين والحجج؛ فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ما كان ليطلب منهم حججًا شرعية! وإنما طالبهم بالحجج العقليَّة والمسلَّمَات الكونية الماديَّة.

وقد قصدتُ برسالتي هذه أن أبعث للفريقين رسالة هادئة، تعرِّف كل طائفة للأخرىٰ تعريفًا واضحًا بلا مغالطات ولا تزييف؛ ليتبين السالكُ سبيلًا سبيلَه، وليعلم ما ينبغي أن يكون عليه بعيدًا عن بيئته واختياراته الفردية، وليتبصَّر مصيره ومآله، وليعلم تاريخه وما ينتظره في مستقبله، ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ [الأنفال: ٤٢]. وأعتقد جازمًا وأجزم معتقدًا أن هذا هو أوجب الواجبات علىٰ القائمين بالحق في كل زمان وفي كل مكان.

وقسمتُ الكتاب إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة:

المقدمة: فيها تمهيد حول موضوع الكتاب.

الفصل الأول: التوحيد؛ وفيه بيان حقيقة التوحيد لغة وشرعًا، وحال الموحِّد.

الفصل الثاني: الإلحاد؛ وفيه بيان حقيقة الإلحاد لغة وشرعًا، وحال الملحد.

الفصل الثالث: حول حقيقة صراع أهل الباطل مع أهل الحقِّ، وصفات كلا الفريقين.

الفصل الرابع: ماذا قدَّم الإسلام للبشر، وماذا تجني البشرية من الإلحاد.

الفصل الخامس: مشكلة الشر بين التوحيد والإلحاد.

تتمة: وفيها طريقة عرض علماء المسلمين لقضية الشر، والإيمان بأن أفعال الله كلها حسنىٰ.

الخاتمة.

واللهَ أسأل أن يوفِّق البشريَّة أجمع لفهم مقصوده من خَلْقهم، وأن يجمعهم جميعًا علىٰ طاعته وعبادته!، وصلَّىٰ الله علىٰ نبيِّنا محمد ﷺ وعلىٰ أبويه إبراهيم وإسماعيل، وسائر الأنبياء والمرسلين... آمين.

المؤلف

* * *


الفَصْلُ الأَوَّلُ:
التوحيد

قبل أن نتكلم عن التوحيد والموحِّدين، نشرع في شرح كلمة التوحيد، ومصدرها لغة واصطلاحًا؛ فإن هذا يقرِّب المقصود للقارئين.

فأما معنىٰ كلمة التوحيد لغةً:

مصدره: «وحَّد يوحِّد» فـ«الواو والحاء والدال: أصلٌ واحد يدلُّ علىٰ الانفراد.

من ذلك الوَحْدَة. وهو وَاحدُ قبيلته، إذا لم يكنْ فيهم مثلُه، قال:

يا واحدَ العُرْبِ الذي ... ما في الأنامِ له نَظِير

ولقيتُ القَومَ مَوحَدَ مَوْحَدَ. ولقيتُه وَحْدَه»[١]. فـ«الواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتَّة، ثُمَّ يُطلق علىٰ كلِّ موجود حتىٰ إنه ما من عدد إلَّا ويصحُّ أن يوصف به؛ فيقال: عشرة واحدة، ومائة واحدة، وألف واحد. فالواحد لفظ مشترك يستعمل علىٰ ستَّة أوجه:

الأوَّل: ما كان واحدًا في الجنس، أو في النَّوع؛ كقولنا: الإنسان والفرس واحد في الجنس، وزيد وعمرو واحد في النَّوع.

الثاني: ما كان واحدًا بالاتِّصال؛ إمَّا من حيث الخلقة كقولك: شخص واحد. وإمَّا من حيث الصِّناعة، كقولك: حرفة واحدة.

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٦/ ٩٠ - مادة: و ح د) لابن فارس.

الثالث: ما كان واحدًا لعدم نظيره؛ إمَّا في الخلقة كقولك: الشَّمس واحدة، وإمَّا في دعوىٰ الفضيلة كقولك: فلان واحد دهره، وكقولك:

نسيجٌ وَحْده.

الرابع: ما كان واحدًا لامتناع التَّجزِّي فيه؛ إمَّا لصغره كالهباء، وإمَّا لصلابته كالألماس.

الخامس: للمبدأ؛ إمَّا لمبدأ العدد كقولك: واحد اثنان. وإمَّا لمبدأ الخطِّ كقولك: النّقطة الواحدة. والوحدة في كلِّها عارضةٌ (...) قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥﴾ [الزُّمَر:٤٥]»[1].

وقد أطلتُ في بيان لغة العرب لفهم هذه المفردة وأصلها، وأختم بذكر ما سطره ابن منظور في «لسان العرب» (مادة: وحد - بتصرُّف يسير -) مبيِّنًا الاشتراك اللغوي والاصطلاحي لهذه المفردة، حيث يقول:

«**التوحيد**: الإِيمان بالله وحده لا شريك له، والله: الواحِدُ الأَحَدُ ذو الوحدانيَّة والتوحُّدِ.

والله: الأَوحدُ والمُتَوَحِّدُ وذُو الوَحْدانيَّة، ومن صفاته الواحد الأَحَد.

(١) «مفردات القرآن» (صحيفة: ٨٥٧ - وحد) للراغب الأصبهاني.

قال أَبو منصور، وغيره: الفَرْق بينهما أَنَّ الأَحَد بُني لنفي ما يذكر معه من العدد؛ تقول: ما جاءَني أَحَدٌ، والواحد اسمٌ بُني لِمُفْتَتَح العدد؛ تقول: جاءني واحد من الناس، ولا تقول: جاءني أَحَدٌ؛ فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير، والأَحَد منفردٌ بالمعنىٰ.

وقيل: الواحد هو الذي لا يتجزأُ ولا يثنَّىٰ ولا يقبل الانقسام، ولا نظير له ولا مثل، ولا يجمع هذين الوصفين إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال ابن الأثير – في أَسماء الله تعالىٰ –: الواحد قال: هو الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر.

قال الأزهري: وأَمَّا اسم الله عَزَّوَجَلَّ: أَحَد؛ فإِنه لا يُوصف شيء بالأَحَديَّة غيره؛ لا يقال: رجل أَحَد، ولا درهم أَحَد؛ كما يقال: رجل وحَدٌ، أَي: فرد؛ لأَن أَحَدًا صفة من صفات الله عَزَّوَجَلَّ التي استخلصها لنفسه ولا يشركه فيها شيء، وليس كقولك: الله واحد، وهذا شيء واحد. ولا يقال: شيء أَحَد.

وإِن كان بعض اللغويين قال: إِن الأَصْل في الأَحَد: وحَد؛ قال اللحياني: قال الكسائي: ما أَنت من الأَحد، أَي: من الناس، وأَنشَدَ:

وليس يَطْلُبُني في أَمرِ غانِيَةٍ   إِلا كَعَمرٍو وما عَمرٌو من الأَحَدِ

قال: ولو قلت: ما هو مِنَ الإِنسان. تريد: ما هو من الناس؛ أَصبت.

وأَمَّا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [فمعنىٰ]: ﴿ٱللَّهُ﴾ فهو كناية عن ذكر الله المعلوم قبل نزول القرآن، والمعنىٰ: الذي سأَلتم تبيين نسبه هو الله، و(أَحَدٌ) مرفوعٌ علىٰ معنىٰ: هو الله أَحَد.

وروي في التفسير أَنَّ المشركين قالوا للنبي ﷺ: انْسُبْ لنا ربَّك. فأَنزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾.

قال الأزهري: وليس معناه أَنَّ لله نَسَبًا انْتَسَبَ إِليه، ولكنَّ معناه نفي النسب عن اللهِ تعالىٰ الواحدِ؛ لأَنَّ الأَنْسابَ إِنما تكون للمخلوقين، والله تعالىٰ صفته أَنه لم يلد ولدًا يُنسب إِليه، ولم يولد فينتسِب إِلىٰ ولدٍ، ولم يكن له مثلٌ، ولا يكون فيشبه به؛ تعالىٰ الله عن افتراء المفترين، وتقدَّس عن إِلحادِ المشركين، وسبحانه عمَّا يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا.

قال الأزهري: والواحد من صفات الله تعالىٰ؛ معناه: أَنه لا ثاني له، ويجوز أَن يُنعت الشيء بأَنه واحد، فأَما أَحَدٌ فلا ينعت به غير الله تعالىٰ؛ لخلوص هذا الاسم الشريف له - جل ثناؤه-، وتقول: أَحَّدْتُ الله تعالىٰ ووحَّدْتُه، وهو الواحدُ الأَحَد. وروي عن النبيِّ ﷺ أَنه قال لرجل ذَكَرَ اللهَ وأَومَأَ بإِصْبَعَيْهِ، فقال له: «**أَحِّدْ أَحِّدْ**»، أَي: أَشِرْ بِإِصْبَعٍ واحدة.

قال: وأَما قول الناس: تَوَحَّدَ الله بالأَمر وتفرَّد؛ فإِنه وإِن كان صحيحًا فإِنِّي لا أُحِبُّ أَن أَلْفِظَ به في صفة الله تعالىٰ في المعنىٰ إِلا بما وَصَف به نفسَه في التنزيل،

أَو في السُّنَّة، ولم أَجِد المُتَوَحِّدَ في صفاته ولا المُتَفَرِّدَ، وإِنما نَنْتَهِي في صفاته إِلىٰ ما وَصَف به نفسَه ولا نُجاوِزُه إِلىٰ غيره لمَجَازه في العربية.

وفي الحديث: «إن الله تعالىٰ لم يرضَ بالوَحْدانيَّةِ لأَحَدٍ غيره، شَرُّ أُمَّتي الوَحْدانِيُّ المُعْجِبُ بدينه المُرائِي بعَمَلِهِ»، يريد بالوحْدانِيِّ: المُفارِقَ للجماعة المُنْفَرِدَ بنفسِهِ» انتهىٰ كلامه بشيء من التصرف.

والتوحيد شرعًا:

هو: «الإيمان بالله وحده لا شريك له، ويكون بمعرفة الله بالرُّبوبيَّة، والإقرار بالوحدانيَّة، ونفي الأنداد عنه جملة، ولا يكون ذلك إلا بإفراده تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ بما هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِ»[1]. فهو إذن إفراد الله بما يستحقُّ؛ أن يُفرد به في أقواله وأفعاله وأسمائه وصفاته، وهذا يسمَّىٰ بالتوحيد الخبري. وإفراده وَحْده بما طلب من العبادات والقربات؛ وهو ما يسمَّىٰ بتوحيد الطلبي.

فعلىٰ الموحِّد أن يؤمن بأنَّ للكون خالقًا، وأن هذا الخالق قادر عليم مدبر لشئون خلقه، وأنه سبحانه كاملٌ في فعله وقوله وأسمائه وصفاته، وأنه - لما تقرر - هو المستحقُّ للعبادة وحده، والعبادة ما يرضيه ويحبه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وأن ذلك لا يُعرف إلا من خلال الرسُل - عليهم

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٧٤) لشيخ الإسلام، و«لسان العرب» (مادة: وحد) (٣/ ٤٤٦) لابن منظور، و«التعريفات» (صحيفة: ٩٦) للجرجاني.

صلوات الله -؛ فهذا ملخص معنىٰ أن يكون الإنسان موحدًا.

ولأهمية التوحيد جعله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أصل الرسالة ومقصودها.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

«**فكلُّ رسولٍ يقول لقومه:** ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، فهي [أي: كلمة التوحيد] أساسُ الدِّين والملَّة، ولا بد أن يعرف قائلها معناها، فهي تعني: أنه لا معبود بحقٍّ إلا الله، ولها شروط؛ وهي: العلم بمعناها، واليقين وعدم الشك بصحتها، والإخلاص لله في ذلك وحده، والصدق بقلبه ولسانه، والمحبة لما دلَّت عليه من الإخلاص لله، وقبول ذلك، والانقياد له، وتوحيده ونبذ الشرك به مع البراءة من عبادة غيره، واعتقاد بطلانها، وكلُّ هذا من شرائط قول: لا إله إلا الله. وصحة معناها؛ يقولها المؤمن والمؤمنة مع البراءة من عبادة غير الله، ومع الانقياد للحق، وقبوله، والمحبة لله، وتوحيده، والإخلاص له، وعدم الشك في معناها؛ فإن بعض الناس يقولها وليس مؤمنًا بها، كالمنافقين الذين يقولونها وعندهم شك أو تكذيب.

فلا بد من علم، ويقين، وصدق، وإخلاص، ومحبة، وانقياد، وقبول، وبراءة»[١].

---

(١) «فتاوىٰ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله» (٣/ ٤٩، ٥٠).

فـ«التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلىٰ الله؛ قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال هودٌ عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

وقال صالحٌ عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

وقال شعيبٌ عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

[ولذلك فـ]أوَّل واجب يجب علىٰ المكلَّف: شهادة أن لا إله إلا الله. [و] أئمة السَّلَف كلهم متفقون علىٰ أن أول ما يُؤمَر به العبد الشهادتان، ومتفقون علىٰ أن من فعل ذلك قبل البلوغ؛ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه، بل يؤمَرُ بالطهارة والصلاة إذا بلَغ أو ميَّزَ عند من يرىٰ ذلك، ولم يوجب أحد منهم علىٰ وليِّه أن يخاطبه حينئذ بتجديد الشهادتين»[١].

فهو إذن مقصود الرسالة، ولأجله بعَثَ الله الرُّسُلَ، ولهذا وَجَب علىٰ من أنكر الرسالات أن يناقشه أول ما يناقش، وهذا من أعجب ما يثير الدهشة: أنَّ

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ٢٧) لابن أبي العز الحنفي.

الملحدين لا يعرجون علىٰ أصل الديانة السماوية الحقَّة، وهو التوحيد.

ومن قرأ في القرآن وفي السنَّة النبويَّة الصحيحة؛ عَلِم أن الموحد له ما يمتاز به، وقد ضرب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مثلًا يوضِّحه في قوله تعالىٰ:

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].

ولا شك أن غير الموحِّد قطعًا فيه شركاء متشاكسون، حتىٰ لو لم يكونوا أقانيم، أو أصنام، أو أوثان؛ فإن غير الموحد تتنازعه الرغبات المتعارضة والأهواء المتضاربة والنظريات المتشاكسة، ولتعارض الحالتين ضرب الله بهما مثلًا «فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾ أي: عبدًا ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ فهم كثيرون، وليسوا متفقين علىٰ أمر من الأمور وحالة من الحالات حتىٰ تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كلٌّ له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟!

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾؛ أي: خالصًا له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة. ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ﴾ أي: هذان الرجلان ﴿مَثَلًا﴾؟ لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون؛ يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع. والموحِّد مخلص لربِّه، قد خلصه الله من الشركة لغيره؛ فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، فـ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ

لِلَّهِۚ﴾ علىٰ تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال. ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾»[1].

فإذا زعم الملحد أنه لا يتنازعه الشركاء المتشاكسون، فقد كذب وأعظم الفرية؛ فإن أشد الناس تخلصًا من فطرته التي فُطر عليها مقهورٌ لشهواته، يتحرك حيث تأمره ويحجم حيث تنهاه، وهل هنالك تعريف لحقيقة التألُّه أوضح من هذا؟! - وهذا جليٌّ لا إشكال فيه؛ فإن الدِّين مصدر دان يدين، ولنا وقفة في بيان ذلك[2] -.

إن ما يحيىٰ به الموحد من عقائد وأفعال وأخلاق؛ ليست من بيئته، ولا من تقاليده، ولا ترجع في أصلها إلىٰ بيئة بعينها، ولا إلىٰ تقاليد بعينها، وإنما هي مراد الخالق من المخلوق، وإن اعتبر الشرع طائفة من الأعراف والتقاليد فجعلها مباحة في ناموسه؛ فإن ذلك لا يعني أنه لم يحكم عليها وأن الحكم لها؛ لا، بل الحكم للخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كل شيء.

ولذلك متىٰ ثبت للموحِّد حكمُ الله، فليس مخيَّرًا في اتباعه؛ نعم، هو مربوب مخلوق وهذا سبب كافٍ لكونه الأفضل علىٰ الإطلاق؛ لأنه بين أن يكون آخذًا بالعصمة في توجهاته واعتقاداته وأخلاقه فيكون موحِّدًا، وبين أن يكون متمردًا! فيكون عرضة للاختيار بين الصواب والخطأ، والحق والباطل، وليس معه ما يضيىء له وجه الصواب ولا يبصره بنور الحقِّ.

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (صحيفة: ٧٢٣)، للعلامة السعدي.
(٢) انظر الفصل الثاني: الإلحاد (صحيفة: (٢٧) - من كتابنا هذا -).

الموحِّد معه الكون يشهد بنظامه المُوَحَّد بأنَّ مالكه واحد، وبدقته المتناهية بأنه لم يوجد عبثًا ولا صدفة، وليس هذا بكلام إنشائي، لا مرجح له من العقل والنظر والبرهان، بل هو يقينٌ لا تخطئه النفوس السوية ولا القواعد العلميَّة الحيادية، وأقتبس هنا نقلًا للدكتور/ (جون وليام كلوتس)[١] يقول:

«إن هذا العالم الذي نعيش فيه، قد بلغ من الإتقان والتعقيد درجة تجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة. إنه مليء بالروائع والأمور المعقدة التي تحتاج إلىٰ مدبِّر، والتي لا يمكن نسبتها إلىٰ قدر أعمىٰ. ولا شك أن العلوم قد ساعدتنا علىٰ زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون المعقدة. وهي بذلك تزيد من معرفتنا بالله ومن إيماننا بوجوده.

ومن التعقيدات الطريفة في هذا الكون؛ ما نشاهده من العلاقات التوافقية الاضطرارية بين الأشياء أحيانًا...[٢] »[٣].

---

(١) عالم في الوراثة، حاصل علىٰ درجة الدكتوراه من جامعة بيتسبرج - أستاذ علم الأحياء والفسيولوجيا بكلية المعلمين بكونكورديا منذ سنة ١٩٤٥م - عضو جمعية الدراسات الوراثية - متخصص في الوراثة وعلم البيئة.

(٢) وساق مجموعة من الأمثلة المشاهدة، التي يشهد المعمل العلمي بشدة تعقيدها الدال علىٰ حقيقة وجود الخالق الواحد صاحب القدرة المطلقة، والحكمة الباهرة - سبحانه وتعالىٰ -.

(٣) انظر: «كتاب الله يتجلىٰ في عصر العلم» (صحيفة: ٥٤) لـ/ كريسي موريسون - وهو الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك، ورئيس المعهد الأمريكي لمدينة نيويورك، =

وفي نفسه – لو تأمَّلها – شاهدٌ له علىٰ صحة اعتقاده؛ قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾ [فصلت: ٥٣، ٥٤].

فليس الكون هو الشاهد الوحيد للموحد، بل يشهد له شاهد من نفسه علىٰ ضعفه وعجزه، في الوقت الذي يشهد العالم بأن الإنسان هو أسمىٰ الموجودات السفلية فيه، فمن أوجد له الكون؟ ومن سخره له؟

إن الإنسان يجد جوابًا عن هذه التساؤلات في نفسه، ويعرف من نفسه ما يجده في كلام ربه عَزَّوَجَلَّ؛ قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣].

فلهذا يحيىٰ الموحِّد الحق علىٰ بصيرة بما يعتقد؛ فإن «ملاحظة هذا الكون

=

وعضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة، وزميل في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي، وعضو مدىٰ الحياة للمعهد الملكي البريطاني – ترجمة الأستاذ بجامعة كمبردج/ محمود صالح الفلكي.

ملاحظة تقوم علىٰ الخبرة والذكاء وتدبُّر ما تعرفه عنه من جميع النواحي؛ سوف تقودنا إلىٰ التسليم بوجود ثلاثة عوالم من الحقائق، هي: العالم المادي = (المادة)، والعالم الفكري = (العقل)، والعالم الروحي = (الروح). وإن ما تقدِّمه الكيمياء في هذا الميدان لابد أن يكون محدودًا؛ لأنه قليل من كثير في هذا المجال.

والكيمياء - بحكم اختصاصها بدراسة التركيب والتغيرات التي تطرأ علىٰ المادة، بما في ذلك تحوُّل المادة إلىٰ طاقة وتحول الطاقة إلىٰ مادة -؛ تعد من العلوم الماديَّة التي ليس لها صلة بعالم الروحيات. فكيف إذن يتسنىٰ للكيمياء أن تقدم دليلًا ماديًّا علىٰ وجود الروح الأعظم أو الله الذي خلق هذا الكون؟!

وكيف ينتظر منها أن تختبر الفرض الذي يدعي أن هذا الكون قد نشأ بمحض المصادفة، وأن المصادفة هي التي تدبِّره وتديره، وأن جميع ما يحدث فيه يتم بالطريقة العشوائية؟!»[1]. فأي نتيجة تكون عن هذه التساؤلات، وأي ثقة ويقين يثمرهما النظر والتأمل لمن رضي بالله ربًّا؛ قال تعالىٰ:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا

(١) اقتباس من مقال تحت عنوان: «النتيجة الحتمية» للدكتور/ جون كليفلاند كوثران - من علماء الكيمياء والرياضة، حاصل علىٰ دكتوراة من جامعة كورنل؛ رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث؛ أخصائي في تحضير النترازول وفي تنقية التنجستين.

تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

فالموحِّد إذن، وإن ورث التوحيد عن أبيه وأمه؛ فإنه يجد له في نفسه، وفي الكون، وفي العِلْم المعاصر شاهدًا؛ لا بل يجد كل ذلك مذعنًا منقادًا، لا يكاد يقوىٰ علىٰ مجانبة الحقِّ الذي بُعث به المرسلون – عليهم الصلاة والسلام –، هذا إن أغفلنا النظر لمن اختار التوحيد والإيمان بعد الشرك والجحود والكفران.

وفي الجملة آثار التوحيد أكثر من أن تحصر، فمن أَجْلِهِ أرسَلَ الله الرسلَ وأنزل الكتبَ. منها علىٰ سبيل المثال: أنه سبب انشراح الصدر؛ قال تعالىٰ: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ**﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال تعالىٰ: ﴿**فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ**﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والتوحيد سبب مغفرة الذنوب، فعَنْ أَبِىٰ ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: «**يَقُولُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّىٰ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً».

وهو سبب من أسباب عصمة الدم والمال والعرض[١]؛ فعَنْ أَبِي مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – يَقُولُ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللهِ**».

ولصاحبه الأمن في الآخرة كما في حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]، وبالتوحيد يحرم العبد عن النار ويزحزح عنها للجنة، وبه تفرج الكرب وتُرفع البلايا، ويُدفع الهمُّ والغم، وبه العصمة من الشياطين– شياطين الجن والإنس – ، وبه تستقيم الأخلاق، وبه تنتظم الحياة، وبه يحيىٰ الإنسان حياة طيبة في المعاش والمعاد، وحصر عوائد التوحيد وفوائده وآثاره من الصعوبة بمكانٍ، ويكفي المرء أن يقول: أن كل خير له في حياته الدنيا والآخرة فسببه التوحيد، وكل شرٍّ له في حياته الدنيا والآخرة فسببه الإخلال بالتوحيد.

* * *

(١) ولا يعتقد المسلم الحق أن غير المسلم حلال الدم والمال والعرض؛ كما يروِّج لذلك أعداء الإسلام من الخارج والداخل، بل يقرر الإسلام حرمة الدماء والأموال والأعراض كافة إلا من محارب.

(٢) سبق ذكره.


الفَصْلُ الثَّانِي:
الإلحاد

الإلحاد لغة:

يقول الخليل بن أحمد: «والرجل يلْتَحِد إلىٰ الشَّيء: يلجأُ إليه ويمِيل؛ يقال: أَلْحَدَ إليه ولَحَدَ إليه بلسانه؛ أيْ: مال، ويُقرأ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ﴾ [النحل: ١٠٣] وَ(**يَلْحدون**). وأَلْحَدَ في الحَرَم (ولا يقال: لَحَد)؛ إذا تَرَكَ القَصد ومال إلىٰ الظلم، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿**من يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ**﴾ [الحج: ٢٥] يعني: في الحَرَم؛ قال حُمَيْد الأرْقط:

لما رَأىٰ المُلْحِدُ حينَ أَلْحَما صواعِقَ الحجَّاج يَمْطُرنَ دَمَا»[١]

وقرر نحوه ابن فارس في كتابه «مقاييس اللغة» - تحت مادة (لحد) -:

«اللام والحاء والدال أصلٌ يدلُّ علىٰ ميلٍ عن استقامةٍ.

يقال: أَلْحَدَ الرَّجُلُ؛ إذ مال عن طريقةِ الحقِّ والإيمان. وسمِّي اللَّحدُ؛ لأنَّه مائلٌ في أحد جانِبَي الجَدَث [٢]. يقال: لحَدْت الميِّتَ وألحدت. والمُلْتَحَد: الملجأ؛ سمِّي بذلك لأنَّ اللاجئ يميل إليه»[٣].

وقربه الجوهري بقوله:

---

(١) «العين» (٣/ ١٨٣).

(٢) يعني: القبر.

(٣) «مقاييس اللغة» (٢/ ٢٣٦).

«ألحَدَ في دين الله، أي: حاد عنه وعدل، و(لحد) لغة فيه. وقرئ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يَلْحَدونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ [النحل: ١٠٣]، والتحد مثله. وألحد الرجل؛ أي: ظلم في الحرم، وأصله من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ [الحج: ٢٥][(١)].

وقال الليث: ألحَدَ في الحرم؛ إذا ترك القصد فيما أمر به ومَالَ إلىٰ الظلم، وأنشد:

لما رأىٰ الملحد حين ألحما صواعق الحجاج يمطرن دما

ومن نظر النصوص الواردة في الوحي لهذه الكلمة؛ وجدها تدور مدار المعنىٰ اللغوي، وهو الميل، وقد وردت في أربعة مواضع: في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

ومعناها: أنهم نسبوا القرآن الكريم إلىٰ تعليم بشر لرسول الله ﷺ، وهذا المعلم لرسول الله أعجمي[(٢)]، وهو كذب واضح؛ فإن الأعجمي لا يقوىٰ علىٰ عشر معشار فصاحته، بل ولا يقوىٰ عليها العربي الفصيح فكيف بالأعجمي؟! فكان المعنىٰ أنهم ينسبون القرآن لغير قائله، فقد مالوا عن الحق

(١) «الصحاح» (٢/ ٥٣٤).

(٢) انظر للجواب علىٰ هذه الفرية كتاب النبأ العظيم للدكتور عبدالله دراز - وهو من اصدارات مركز تبصير -بتحقيقنا.

ويشيرون إلىٰ الأعجمي علىٰ أنه هو من أنشأ القرآن! وعليه أجابهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأن «**الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان** ﴿وَهَٰذَا﴾ **القرآن** ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾؛ **هل هذا القول ممكن؟! أو له حظ من الاحتمال؟!**»[1].

وفي شرح هذه يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فإنه تعالىٰ أبطل قول الكفار بأن لسان الذي ألحدوا إليه - بأن أضافوا إليه هذا القرآن فجعلوه هو الذي يُعلِّم محمدًا القرآن - لسانٌ أعجمي، والقرآن لسان عربي مبين، وعبَّر عن هذا المعنىٰ بلفظ: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ لِمَا تضمن من معنىٰ ميلهم عن الحق، وميلهم إلىٰ هذا الذي أضافوا إليه هذا القرآن؛ **فإن لفظ «الإلحاد» يقتضي ميلًا عن شيء إلىٰ شيء بباطل**»[2].

والموضع الثاني - عن الإلحاد في أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -:

قال تعالىٰ: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

«**وحقيقة الإلحاد - في هذه الآية هي** -: الميل بها عما جعلت له؛ إما بأن يسمَّىٰ بها من لا يستحقُّها؛ كتسمية المشركين بها لآلهتهم، وإما بنفي معانيها

(١) «تفسير السعدي» (صحيفة: ٤٥٠).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ١٢٤).

وتحريفها، وأن يجعل لها معنىً ما أراده الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها؛ فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها»(١).

والموضع الثالث - عن الإلحاد في آيات الله -:

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠ ﴾ [فصلت: ٤٠].

و«**الإلحاد في آيات الله**: الميلُ بها عن الصواب، بأيِّ وجهٍ كان: إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معانٍ لها ما أرادها الله منها»(٢).

والموضع الرابع -عن الإلحاد في الحرم-:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾ [الحج: ٢٥].

وهي هنا أيضًا بمعنىٰ الميل للظلم، أو العدول عن الواجب والمباح للمحرم، فـ«أصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والجور عنه، والإعراض، ثم يُستعمَلُ في كل مُعْوَجٍّ غير مستقيم؛ ولذلك قيل لِلَحْدِ القبْر:

---

(١) «تفسير السعدي» (صحيفة: ٣٠٩).

(٢) «تفسير السعدي» (صحيفة: ٧٥٠).

لَحْدٌ؛ لأنه في ناحية منه وليس في وسطه»[1].

والإلحاد اصطلاحًا:

كما قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الإلحاد في الدِّين؛ هو المعاندة بالعدول عنه، والترك له**»[2].

وقال أبو القاسم الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأَلْحَدَ فلان: مال عن الحقِّ، والإِلْحَادُ ضربان: إلحاد إلىٰ الشِّرك بالله، وإلحاد إلىٰ الشِّرك بالأسباب.

فالأوَّل: ينافي الإيمان ويبطله.

والثاني: يوهن عراه ولا يبطله»[3].

ويتلخَّص معنى الإلحاد المعاصر في نقاط تدور مدار المَيْل عن الحق والمعاندة للدِّين، وهي:

إنكار وجود إله، والقول بأن الكون أوجد نفسه! - بلا خالق -، وأن المادة أزلية وأبدية - هذا في مذهبهم القديم، وتغيرت نظرية الكون المستقر عندهم

---

(١) «تفسير الطبري» (١٠/ ٥٩٨).

(٢) «تفسير الطبري» (١٧/ ٦٥٢).

(٣) «المفردات» (صحيفة: ٧٣٧).

الآن؛ فهم يقولون بالانفجار الكبير، ومعناه: أن للكون بداية! وله وفق ذلك نهاية، واعتقاد أن الحياة إنما نشأت صدفة ! بقاعدة النشوء والارتقاء والانتخاب الطبيعي! وبمقتضىٰ طبيعة المادة وقوانينها.

وهم لذلك لا يؤمنون باليوم الآخر - وهو معتقد لجماعة من كفار الجاهلية الأولىٰ -، ويؤمنون ببقاء الدهر! وسيطرته وهيمنته، وقد ذكر ابن منظور في «لسان العرب» - تحت مادة (زندق) وعرف معناها بقوله -:

«**الزنديق**: القائل ببقاء الدهر، فارسي معرب، وزندقته أنه لا يؤمن بالآخرة ووحدانيَّة الخالق».

وأما عن الملحدين اليوم؛ فهم علىٰ ثلاثة أنواع:

الأول: مَن يعتقدون عدم وجود خالق للكون ويجزمون بذلك.

الثاني: اللاأدريون وهم الذين يتوقفون في وجود الخالق إثباتًا ونفيًا، **ومنهم** من لا تحمل هذه القضية عندهم أهمية كبيرة، وهم اللا اكتراثيون! .

الثالث: الربوبيُّون، وهم الذين يعتقدون أن للكون خالقًا، أو بعبارة أدق: أن خلف الكون قوة أوجدته وتسيره، ولكنهم ينكرون أن هذه القوة تستحق العبادة! بل يزعمون أن الخالق خلق الخلق وأهمله!

وجلُّهم من الصنف الأول، والأصناف الثلاثة لهم اعتقادات ومسلَّمَات

يدينون بها وإن تسموا باللادينيِّين؛ قال تعالىٰ:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: ٢٣-٢٦].

وفي هذه الآية دليل واضح أن هنالك من لا يتخذ إلهًا من خارج الكون ولا من داخله سوىٰ هواه، فهم متدينون! ولهم إله قد اتخذوه يعبدونه وهو هواهم؛ **قال الإمام الشاطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إن الناس في عامة الأمر لم يختلفوا في أن لهم مدبرًا يدبرهم، وخالقًا أوجدهم، إلا أنهم اختلفوا في تعيينه علىٰ آراء مختلفة:

من قائل بالاثنين وبالخمسة، **وبالطبيعة أو الدهر**، أو بالكواكب، إلىٰ أن قالوا بالآدميين والشجر والحجارة وما ينحتون بأيديهم.

ومنهم من أقرَّ بواجب الوجود الحقِّ، لكن علىٰ آراء مختلفة أيضًا.

إلىٰ أن بعث الله الأنبياء مبيِّنين لأممهم حقَّ ما اختلفوا فيه من باطله، فعرَّفوا بالحق علىٰ ما ينبغي، ونزَّهوا رب الأرباب عمَّا لا يليق بجلاله من نسبة الشركاء

والأنداد، وإضافة الصاحبة والأولاد، فأقر بذلك من أقر به، وهم الداخلون تحت مقتضىٰ قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٩]، وأنكر من أنكر...»[١].

وفي كلامه دليلٌ علىٰ أنهم إن نسبوا للطبيعة أو الدهر إيجاد الكون، فقد قالوا بقول من نسب ذلك للأصنام وغيرها ولكن بصورة ما، وهذا ما يقرره (غاري غثري) حين يقول:

«ربما تأمَّل الإنسان القديم أفكارًا مشابهة، وآل به الأمر إلىٰ الإيمان بوجود قوة عالمة أبدعت كلَّ شيء، أو كما في تعبير بعضهم اليوم: حولَّت الطاقة إلىٰ أشكال المادة.

ماذا تكون هذه القوة العالمة؟

سؤال تباينت الآراء حوله واختلفت عبر الأزمان، مخلِّفة وراءها قائمة من الاحتمالات»[٢]، وهذه القائمة تنسب الفعل لفاعل لا لنفسه! وأيا كان من ينسب له فعل إيجاد الموجودات؛ فهو واجب الوجود - علىٰ مصطلح المتكلمة - وهو الخالق للمخلوقات.

(١) انظر: «الاعتصام» (٢/ ٦٧٢) للإمام الشاطبي.

(2) GUTHRIE، G.D.(1997) THE WISDOM TREE، p. 16.

وقد استفدته ومجموعة اقتباسات من رسالة: «ثلاث رسائل في: الإلحاد والعقل والإيمان».

وهو أيضًا ما يقرُّ به تشارلز داروين أنه لم يخرج عنه؛ يقول:

«في أقصىٰ درجات تقلبي، لم أكن في يوم من الأيام ملحدًا! بمعنىٰ منكرًا لوجود الإله!»[1].

وحجَّتهم علىٰ قولهم أنه لا يوجد للكون خالق:

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وحقيقتها أنها تخرُّص وظنٌّ، أليس كبارهم يصرِّح بأنهم لا يعرفون دليلًا لوجود الله! إذن دليلهم جهلهم، يقول ريتشارد دوكنز وقد لخَّص أسباب القول بعدم وجود الإله؛ ذكر خمسة أسباب كلها يتعلَّق بأدلة المؤمنين، وذكر ما يستندون إليه؛ فقال:

«الملحدون لا يتحمَّلون عبء البحث عن دليل عدم وجود الإله! ولكنَّ المؤمنين هم يتحملون عبء إيجاد الدليل علىٰ وجود الله!!»[2].

فأي تهافت هذا؟!

دليله في رد العقل الجمعي هو أنه ليس مطالبًا بدليل علىٰ قوله! فهم إذن

---

(١) من رسالته لـJOHN FORDYCE قبل موته بثلاث سنوات.

(٢) من مقطع – بصوته وصورته – مبثوث عنه في الشابكة.

يظنون ظَنًّا وَمَا هم بِمُسْتَيْقِنِينَ! وهذا الظنُّ يخالفون به العقول دفعة؛ فإنَّ أهل الأرض قد أطبقوا علىٰ وجود خالق، وقولهم عن تحقيقه يعود إلىٰ ما ذكرناه من كلام الإمام الشاطبي من أنهم معدودن ضمن مخالفيهم بصورة ما، وقد رد الله تبارك وتعالىٰ ادعائهم هذا بقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورىٰ: ١٦]، فتبين أنه بعد اتفاق العقلاء علىٰ وجود الله وقيام حجته تبارك وتعالىٰ علىٰ خلقه فكل دعوىٰ مناقضة لذلك فهي داحضة باطلة، وعلىٰ كلٍّ فَهُم لا يخرجون عن قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

ثم يذكرهم الله بماديتهم التي يتكلفون فيها متعامين عن النظر الثقيب، فيقول تعالىٰ:

﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية: ٢٥].

وقد أجاب الله تعالىٰ عن مثل هذا التساؤل في قوله:

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ [الإسراء: ٥١].

وفي سورة يس: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٧٨ - ٨٠].

وفي سورة القيامة: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

إذن دليل الوجود دليلٌ علىٰ قدرة الموجد لإيجاد مَن أوجده، ولو بعد موته، وهذا أهون وأيسر في العقول - والنشأة الأولىٰ وإعادة الهالكين كلاهما سواء -، ولذلك ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ما تعرفه العقول وتسلِّم به، من أنَّ إثبات موجد؛ قاضٍ بأنه لا يُعجزه إعادة ما أوجَدَه من عدم، ولو صار رفاتًا؛ قال تعالىٰ:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ونرجع إلىٰ هذا السؤال: هل إنكارهم مبنيٌّ علىٰ دليل علمي؟

وهل الدليل العلمي ينكر وجود الخالق للكون العظيم؟

وقد أجبنا عليه من كلام دوكنز نفسه! ولكن لندع (أندرو كونواي إيغي) يجيب:

«إنكار وجود الله لا يستند إلىٰ دليل منطقي؛ إن أحدًا لا يستطيع أن يثبت خطأ الفكرة التي تقول: (إن الله موجود)، كما أن أحدًا لا يستطيع أن يثبت صحَّة الفكرة التي تقول: (إن الله غير موجود). وقد ينكر منكر وجود الله، ولكنه لا يستطيع أن يؤيِّد إنكاره بدليل.

وأحيانًا يشكُّ الإنسان في وجود شيء من الأشياء، ولابد في هذه الحالة أن يستند شكُّه إلىٰ أساس فكري. ولكنني لم أقرأ ولم أسمع في حياتي دليلًا عقليًّا واحدًا علىٰ عدم وجوده تعالىٰ. وقد قرأت وسمعت في الوقت ذاته أدلَّةً كثيرة علىٰ وجوده، كما لمست بنفسي بعضَ ما يتركه الإيمان من حلاوة في نفوس المؤمنين، وما يخلفه الإلحاد من مرارة في نفوس الملحدين.

والبرهان الذي يتطلبه الملحدون لإثبات وجود الله؛ هو نفس البرهان الذي يطلب كما لو كان الله تعالىٰ شبيهًا بالإنسان أو شيئًا ماديًّا، أو حتىٰ تمثالًا من التماثيل أو صنمًا من الأصنام.

ولو كان لله مثل هذا الوجود المادي؛ لما وجد هنالك مجالٌ للشك في وجوده، ولكن الله أراد ضمن ما أراد أن يختبر عقولنا حول الإيمان به، فترك لنا حرية الاختيار؛ لكي يؤمن به من يؤمن، وينكره من ينكر؛ فالإنسان يستطيع إذا شاء - بخداع نفسه - أن ينكر وجود الله، وعليه أن يتحمل النتائج.

ومعظم الملحدين والمارقين من الأديان ينظرون إلىٰ الله كما لو كان بشرًا يمكن التعامل معه تعامل الأنداد، فيقولون مثلًا: سوف أعتقد بوجود الله إذا شفاني من مرضي، أو إذا أنزل المطر، وإذا قضىٰ حاجتي، أو إذا أوقف الفيضان، أو إذا محا الشر والظلم من الكون... إلخ.

وقد يقول بعضهم: إذا كان هنالك إله عادل ما أصابني وجع في أسناني... ومعنىٰ ذلك بعبارة أخرىٰ: إنني أؤمن بالله إذا بنىٰ الكون أو عدَّله تبعًا لخطتي الخاصة التي تقوم علىٰ الأنانية وتبعًا لصالحي الشخصي.

ولا مناص من الوصول إلىٰ الله، ولكي يفكر الإنسان فيه تفكيرًا مستقيمًا لا عوج فيه ولا نفور؛ عليه أن يحرِّر عقله من الأنانية ومن الأحقاد ومن كل ما يعوق التفكير الصافي السليم حتىٰ يتسنىٰ له أن يصل إلىٰ الله ويحبه، وبذلك يُسهم في محاربة الشرور والظلم الذي يتحدث عنه من يشكُّون في أمره ووجوده تعالىٰ، فلقد اقتضت حكمة الله أن يستخدم الإنسان عقله وإرادته وحريته في اتخاذ القرارات اللازمة لمحاربة هذه الشرور، حتىٰ يصير حكم الله في الأرض مثل حكمه في السماء»[1].

هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ أن اعتراضهم علىٰ الأديان بأنها أعراف وتقاليد تغرز في نفوس الناس؛ مردودٌ عليه ببداهة مشهودة وواقع ملموس، يقول

---

(١) اقتباس من مقال تحت عنوان: وجود الله حقيقة مطلقة لـ: أندرو كونواي ايغي – عالم فسيولوجي من العلماء الطبيعيين ذوي الشهرة العالمية – من سنة ١٩٢٥ إلىٰ سنة ١٩٤٦م رئيس قسم الدراسات الفسيولوجيَّة والصيدلية بجامعة نورث وسترن – ومن سنة ١٩٤٦ إلىٰ سنة ١٩٥٣م أستاذ في كلية الطب، ووكيل الكلية في جامعة ألينوي – وفي الوقت الحاضر أستاذ الفسيولوجيا ورئيس قسم العلوم الإكلينيكية بكلية الطب بجامعة شيكاغو.

أندرو كونواي ايغي:

«نشأة المبادئ الأولىٰ في عقل الطفل، عندما كان عمري ثلاث سنوات – كسائر الأطفال بين الثالثة والخامسة –، سألت أبي وأمي: من الذي صنعني؟ ومن الذي صنع الطيور؟ ومن الذي صنع بقرتنا؟ ومن الذي صنع الدنيا؟

لقد تفاعلت حقائق الحياة أو خبرتي الحسيَّة مع عقلي حين تكوينه بحيث جعلتني أصل إلىٰ أنه لا يمكن أن تكون هنالك آلة دون صانع. ثم تحرك ذكائي وعقلي إلىٰ ما وراء الحقائق المباشرة، إلىٰ ما وراء ذاتي والطير والبقرة، ووصل إلىٰ أنه لا يمكن أن أكون (أنا) أو يكون الطير، أو تكون البقرة، دون أن يكون هنالك سبب لوجودها أو صانع لها.

لقد توصل عقلي البسيط البريء غير المتحيز أو المختلط، غير المكبوت أو المضطرب، إلىٰ مبدأ يعتبر من أرسخ المبادئ الفلسفية والعلمية التي توصل إليها العقل البشري حول الوجود والفكر.

لقد تفاعل عقلي مع خبرتي الحسيَّة تفاعلًا يكفي لإنتاج قدر من التفكير يعين علىٰ الإحساس بالوجود؛ فأنا أدرك أن هذا أنا أو تلك ذاتي، كما أنني وصلت في نفس الوقت إلىٰ مبدأ عدم الوجود، فأنا لست طائرًا أو بقرة أو الدنيا، وبعبارة أخرىٰ توصل عقلي إلىٰ مبدأ الوجود وعدمه ومبدأ الجزيء والكل أكبر من الجزء.

وما إن يتكون لدىٰ الطفل هذا الإحساس بالوجود وعدمه، حتىٰ يكون قد ألمَّ بالمبدأ الأول من مبادئ الفكر وهو: (أننا لا نستطيع أن نثبت وجود شيء وننكره في نفس الوقت). فالطفل الصغير يقول: أنا توم، وهذه أختي ماري. وقد وصل الطفل إلىٰ درجة من التفكير تمنعه من أن يخلط بين نفسه وبين أخته فيقول: أنا ماري وأختي توم. إلَّا علىٰ سبيل الفكاهة. ثم يعرف الطفل بعد قليل أنه من الخطأ أن نقول: إن المربع مستدير. فهو يدرك أن المربع لديه من الأسباب ما يكفي لجعله مربعًا، وهذه الأسباب تجعله مربعًا، وتجعل ذلك أمرًا واضحًا بالنسبة له.

هذه المعلومات من جانب الطفل وسؤاله: من الذي صنعني؟ ومن الذي صنع الدنيا؟ يوضِّح لنا أن الطفل قد اكتشف مبدأ السببية أو قانون السببية الذي ينص علىٰ أنه: (لا تأثير بغير مؤثر)، ومعناه: أنه لابد لكل آلة من صانع، ولكل تغيير من محدث. ثم يسير التفكير في سلسلة من المسببات تبدأ بوجودي ووجود الدنيا، وتنتهي إلىٰ وجود الله بوصفه السبب الأول، أو تبدأ من وجود الحركة وتنتهي إلىٰ المحرِّك الأول.

ويمكننا أن نعبر عن ذلك كله بطريقة أخرىٰ، وهي أنه إذا كان هنالك تصميم فلابد أن يكون من ورائه مصمِّم، ولابد أن تكون لذلك المصمم الكوني صفات لا نهائية، ذلك الخالق البارع هو الله. ويبلغ قانون السببية درجة من الشدة تجعل

الطفل ما بين الثالثة والخامسة يتحقَّق من أنه لابد أن يكون هنالك إله»[1].

وعلىٰ كل حال، فإنهم وإن برروا أن الدين مجرد تقاليد تجعل الإنسان يلتزم بها، ولم يقنعوا بالباحثين الماديين الذين يثبتون أن الإنسان يولد وهو يعتقد بالسببية المفضية إلىٰ وجوب وجود خالق للكون، وأن هذا الخالق قادر وحكيم وعليم؛ إن لم يقنعوا بذلك فما عساهم أن يقولوا لبعض رموزهم الذين يعتقدون بوجود كائنات فضائيَّة!! وهم علىٰ سعة تحجرهم مع النصوص الدينية لا يجدون غضاضة في اعتقادهم هذا! وهم لا يملكون شبهة دليل عليه.

ومن أعجب ما يستدلُّون به اليوم؛ رواج المذهب الإلحادي بين صفوف بعض الجهال بحقائق الدِّين، وهم في الوقت نفسه يردُّون جموع البشر التي تطابق إيمانها علىٰ وجود خالق، وما انتشارهم اليوم بين الناس إلا لأجل انتشار أذرعهم ودعمها من مؤسسات ضخمة، عبر:

* مطبوعات مختصرة ومطولة، تحمل عبارات رنانة، وشعارات جوفاء، توزع في المحافل والتجمعات العامة.

* ودعم هائل عبر الإنترنت من خلال مواقع، وصفحات مشبوهة، تبث الريبة من كل ثابت، والشك في كل مستقر!

---

(١) اقتباس من مقال تحت عنوان: وجود الله حقيقة مطلقة لـ: أندرو كونواي ايغي.

* وأما الإعلام المرئي فحدِّث عن المسلسلات والوثائقيات! والمقاطع القصيرة التي تمول بالإعلانات المدفوعة؛ حدِّث عن ذلك ولا حرج!

* والجمعيات الأهلية والتجمعات الرياضية، والندوات المغلقة، والجلسات في المقاهي وعلىٰ الأرصفة.

* واختلاق المواقف الإنسانية عن مساندة الـ Single Mother أو حفلات الشواذ، إلىٰ غير ذلك من جمع السذج حول قضية ظاهرها الفرديَّة والمعاناة، وباطنها ترويج الإلحاد.

هذه وغيرها من الوسائل التي بها يروِّجون للإلحاد، وأعظم ذلك بث الإلحاد في حالة الاحتقان الشعبي من تهورات الجماعات الإسلامية المنحرفة التي اتُخذت ذريعة للتشكيك في الدِّين الإسلامي خاصة.

ولا شك أن هذا المنهج الفكري المنحرف أشدُّ غيًّا وضلالًا من منهج المشركين، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الكفر عدم الإيمان بالله ورسله، سواء كان معه تكذيب، أو لم يكن معه تكذيب بل شك وريب، أو إعراض عن هذا كله؛ حسدًا أو كبرًا أو اتباعًا لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة، وإن كان الكافر المكذب أعظم كفرًا،

وكذلك الجاحد المكذب حسدًا مع استيقان صدق الرسل»[1].

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ - **أيضًا** -: «مَن أنكر المعاد مع قوله بحدوث هذا العالم؛ فقد كفَّرَه الله، فمن أنكره مع قوله بقدم العالم؛ فهو أعظم كفرًا عند الله تعالىٰ»[2].

وهو في الجملة أسوأ المناهج المنحرفة علىٰ الإطلاق، ومن عرف لوازمه بل ظاهر من يدعو إليه الإلحاد علم حقيقة كونه شر المذاهب مطلقا.

* * *

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ٣٣٥).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ٢٩١).

الفَصْلُ الثَّالِثُ:

في حقيقة صراع أهل الباطل مع أهل الحق، وصفات الفريقين

بدأ الصراع بين الحق والباطل مع بداية وجودهما، وهذا يرجع للَّحظة التي رفض فيها الشيطان أن يسجد لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ معلنًا أنه يتخذ منه عدوًّا، ولو كان الآمر بالسجود له هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وما لبث رفضُ الشيطان للسجود له، إلا وقد أدخل الله آدمَ الجنةَ وقال له: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

وقد بدأ بذلك صراع قاسٍ بين الشيطان وآدم، وما أن يظفر الشيطان بجولة إلا ويمحو الله أثرها، ويعطي آدم وبنيه من الأسباب المعينة علىٰ الظفر علىٰ عدوهم ما يعطيهم؛ ليعلم من تأمَّل أن وجود الشر ما هو إلا امتحان من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يظهر به من يستحق كرامة الله له ورضوانه عليه ممن يستحق مقت الله وغضبه عليه.

ولكن الله لم يخلق آدم علىٰ صورة الملائكة من حيث هم غير مختارين، بل خلقه مختارًا، وإذا أردت أن تتصور حقيقة نوازع الشر في الشيطان الرجيم، لابد أن ترجع إلىٰ القصة من مهدها؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

«**فقالت الملائكة - عليهم السلام -**: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، هذا تخصيص بعد تعميم؛ لبيان [شدة] مفسدة

القتل، وهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المجعول في الأرض سيحدث منه ذلك، فنزهوا الباري عن ذلك، وعظَّموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله علىٰ وجه خالٍ من المفسدة، فقالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]»[١].

وأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جبريل أن يقبض قبضة من بقاع الأرض جميعًا ليخلق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ منها آدم؛ لذلك فبنوه شتىٰ، فيهم الأبيض والأسود والأحمر، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص: ٧١]، ولما سوَّاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ «مرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه، وكان أشدهم منه فزعًا إبليس، فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار، يكون له صلصلة؛ فذلك حين يقول: ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: ١٤]، ويقول: لأمرٍ ما خُلقت.

ودخل مِن فِيهِ وخَرَج من دبره، وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا؛ فإن ربكم صمد وهذا أجوف، لئن سلطت عليه لأهلكنه». [وتحركت نوازع الشر في إبليس تجاه المخلوق الجديد]، فلما بلغ الحين الذي يريد الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفخ فيه الروح؛ قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له. فلما نفخ فيه

---

(١) «تفسير السعدي» (صحيفة: ٤٨).

الروح فدخل الروح في رأسه؛ عطس، فقالت الملائكة: قل: الحمد لله. فقال: الحمد لله. فقال له الله: رحمك ربك.

[فتأمَّل بما بادر إبليس وبما بادرت الملائكة، ولذلك] ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١]»[١].

فبدأ الصراع مبكرًا، حين تحركت النفس المخيَّرة بين الطاعة والمعصية؛ فهذه إذن بداية الشر، كانت بسبب مخالفة المكلف المختار، والمختار غير المعصوم يتنازعه الميل لكلا السبيلين، وإلا فتحميله أمانة الاستقامة يكون عبثًا[٢]، ويأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الملائكة ومعهم إبليس أن يسجدوا لآدم؛ فتمتثل الملائكة ويتذمر إبليس ويأبىٰ مجادلًا بالباطل الذي خرج من خبيئته لأول مرة؛ قال تعالىٰ:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ٧٦ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٧٧

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٩٦).

(٢) ويكفي فهم ذلك لإدراك حكمة وجود الشر في الكون، ولنا وقفة مع الشرِّ بين التوحيد والإلحاد، انظرها صحيفة: (٧٧).

وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٧١ – ٨٣].

وجواب إبليس على سؤال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾؟ يدل على كونه استكبر؛ لأنه أجاب بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾!!

وحين يظهر مكنون إبليس، يعاقبه الله جَلَّ وَعَلَا عقابًا شديدًا؛ لأن الشرَّ الذي أتى به من مخالفته أمر الله لا يحبُّه الله ولا يرضاه، وهو من جهة إبليس شرٌّ، وهو في الوقت نفسه درس ظاهر عملي لآدم يعلم فيه أعداءه، ويعلم كيف يعامل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من يخالف أمره. وحين يخبره الله بأن إبليس عدو له، وأنه يريد إخراجه من الجنة ليشقى؛ يتجلَّى حقيقة محبَّة الله لسلامة آدم من شراك إبليس، غير أن طبيعة الامتحان تأبى إلا وجود الصراع بين المختارين: من اختار الغواية من أول يوم – إبليس –، وبين آدم الذي – مع ما مر – أكَلَ من الشجرة، ولكنه بادر بعد معصيته بالتوبة؛ قال تعالى:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ

كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٥ – ٣٧].

وهنا يظهر لك سبب عناية الله سبحانه بآدم؛ فإنه حين عصىٰ بادر بالتوبة والاعتراف بالخطأ، وأما إبليس فبادر بالجحود والكبر؛ فهذه بداية الصراع وضراوته تظهر في حقد هذا اللعين حين قال:

﴿أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٢–٦٥].

فالصراع إذن سيكون شرسًا بين آدم الذي كرَّمه الله وتاب عليه وخلقه لجنَّته، وبين إبليس الذي لا يرىٰ في الكون عدوًّا له سوىٰ آدم وأبنائه؛ فيبدِّل عليهم العقائد، ويحرفهم سواء الفطر، ويستزلهم بالشهوات والشبهات، يفتت قوتهم بالتفرُّق، ويخرجهم عن الحقِّ بالحيل، وما عسىٰ أتباعه من ولد آدم أن يصنعوا إلا ما صنع قدوتهم، وما عساهم أن يحتالوا إلا بما احتال به أسوتهم؛ إذ يقسم لآدم لكي يأكل الشجرة: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ [الأعراف: ٢٠ – ٢٢].

واليوم صراعه بصورة جديدة، بصورة علمية مزيفة، ولا أقول: أنه لم يعدَّ لها عدَّته؛ لا بل قد أعد عدته، فمن يسخِّرهم لمحاربة الحق قد أغراهم وأغواهم حتىٰ صدقوا أنه لا مجال للأخلاق، لا مجال للقيم، لا مجال للأعراف والتقاليد، بل لا مجال للدين نفسه؛ جرَّدَهم من كلِّ شيء حتىٰ يستبيحوا في محاربتهم الحقَّ وأهله أن يفعلوا كل ما يستطيعون! فلا تعجب حين تزور النتائج المعملية أو توظف في خدمة ما لا تشهد له، وما مغالطة يوري/ ميلر ببعيدة.

في الوقت الذي يرفض هؤلاء الملاحدة الجدد الدِّين، يجعلون من قادتهم كهنة، ومن أفعالهم طقوسًا، ومن منظورهم قانونًا، وفي الوقت الذي يعيبون فيه زواج البالغة لكونها لم تبلغ سنًّا فرضوه هم! يبيحون معاشرة الحيوانات والمحارم والمثلين! فارتضوا من أنفسهم ما ارتضاه إبليس لنفسه من أن يكون قوادًا لكلِّ فاسق وفاجر من بني آدم(١).

وحسبي هنا أن أعرج علىٰ سمات كلا الفريقين، عسىٰ متأمل يعي حقيقة

---

(١) عجيب أمره! يرفض السجود لآدم ويرضىٰ أن يكون قوادًا لمن فسق من ذريته! وهذا حال من خرج عن أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الصراع بمعرفة حقيقة المتصارعين.

إن سمات الموحِّد تبدأ بثباته علىٰ فطرته، واستقامته علىٰ قيمه وأخلاقه، ويقينه فيما هو عليه، ومعرفته أن الله يأمر باتباع البرهان وتصديقه، وإعمال العقول فيما خلقت له، يعلم لِمَ هو هنا، وإلىٰ أين المصير، القولُ عنده بحساب؛ لأنه يعلم أنه عليه فيه رقيب، والفعل منه بقدر؛ لأنه يعلم أن الله قد حدَّ له سياجًا يعمل فيه، تستوي عنده الوسيلة مع الغاية؛ لأنه لا يركب وسيلة إلا بعد معرفة حكم الله فيها، فلا يبرر قبح الوسائل بنبل الغايات! يعامل الخلق جميعًا بأخلاقه لا بأخلاقهم وبمبدئه لا بمبادئهم، فعله وقوله لنفعهم، ولا أقل عنده من أن يدفع عنهم أذاه، يعلم أنه هاهنا في امتحان فلا يعبث، فهو جاد ما التزم بدينه.

وأما الملحد فالشك والريب! لا يعلم لِمَ وجد، ولا يعلم إلىٰ أيِّ مصير يصير، قد انتكست فطرته، وخرج من منظومة الأخلاق بلا عودة، ولم يلتزم بها، هي عبث عنده ومعوق يعوقه عن اللذة والمتعة! لا يراقب أحدًا بل لا يراقب شيئًا في قول ولا فعل، لا قيد يقيد الغايات فكيف بالوسائل؟! يزعم أنه يعلي من العقل وهو يحتقره ويزري به، يحيا في اضطرابات نفسية؛ لأنه إن أراد أن ينسلخ من نفسه ليرتدي إهاب - جلد - خنزير، ولم لا! فهو كما يسمىٰ حيوان متطور! رفض الامتثال لأوامر خالقه فزعم أنه لم يخلقه خالق! إذا تكلَّم بالمنطق خالفه، وإذا استدلَّ بالعلم كابره، يعيش حياة الحظيرة ويموت فيها غير مأسوف عليه.

وهل لمعترض علىٰ ما قلتُ من حجة؟! أليس هذا واقع الملحد؟! أليس هذا ما يدعون إليه، وما يكرثون الأموال للوصول له؟! لو بسط القلم ليكتب عن حياة الملحد في ليله ونهاره علىٰ وفق ما يراه مباحًا لا غضاضة فيه؛ لأفسد القلم صفو القارئين، وأهدر حياءً لا يقدره إلا الموحِّدون.

ويتَّضح لك سمات الفريقين عند الصراع بينهم، وبضدِّها تتميَّز الأشياء، فهذه محاججة عقليَّة بين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبين قومه، يبدو لك من خلالها كيف يفكر أعداء الرسل، وكيف يخاطب الرسل أقوامهم، يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢].

وهذه محاورة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، يقول لهم:

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٧١، ٧٢].

وتأمل في قوله لهم: ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾، فإنه لو رجع حدوثها في أجدادكم على مدًى بعيد؛ فهي حادثة جديدة بعد أن لم تكن. ثم يقول لهم: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾؛ فهي إذن إلى زوال، وهنا يظهر حوار من على ثقة بربه عَزَّوَجَلَّ - وهي أوضح سمات المؤمنين - مع من لا ثقة ولا يقين له، وهذا هو أساس الفرق بين الفريقين؛ فالمؤمنون على ثقة ويقين، وغيرهم في تقلُّب وشكٍّ؛ يقول عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لهم: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾ ليأتي التعقيب بالفاء المشيرة لسرعة وقوع ما بعدها: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾؛ فهل بعد هذا الذي يبيِّن بوضوح سمة المقارعة بين الفريقين من بيانٍ لسؤال إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ : ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١﴾ [الأنعام: ٨١].

ويظهر ذلك جليًّا في خبر نوح مع قومه؛ قال تعالى:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ

وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾

[هود: ٢٥ – ٣٤].

تأمَّل في ظنهم وفي يقينه بربِّه، وتأمَّل في توخيه عليه السلام من أن يتوعدهم بوقوع عقوبة عليهم، لا يعلم عن الله أهو موقعها بهم أو لا.

فظهر من الآي – التي ذكرت – أن الموحِّد على ثقة ويقين مما هو عليه، بخلاف من يحاربه فهو في شكٍّ وريب، وأقتبس هنا كلمات عن كبار الملحدين تدلُّك أن حالهم شكًّا وريبًا أسوءُ من حال هؤلاء المشركين.

فأعتى الملحدين شراسة ضد الموحدين وغيرهم، غاية ما يقول في كثير مما يُسأل عنه: لا أدري! لعل العلم يجيب! ليس لدي دليل! فهو يؤصِّل لنتيجة؛ لانتفاء معرفته بدليل لضدِّها، وحالهم حال فرعون كما حكاه الله في قوله:

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى

ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾

[القصص: ٣٨].

مثل هذا الجهل يقرر معه فرعون أنه ما دام لا يعلم أموسىٰ صادق أم لا؛ فإنه يكذبه، بل ويدعي أنه إله مع ذلك؛ كهؤلاء حذو النعل بأخيه النعل، لا يعرفون أللكون خالق أم لا، ليس عندهم دليل! ثم يقولون بعد تقرير جهلهم: أنهم يعتقدون أنه لا خالق!!

حتىٰ إنهم شككوا في المحسوسات المدركات بالحس، حتىٰ قالوا: ليس معنىٰ أنك ترىٰ السماء زرقاء أن لونها أزرق. بل قالوا: لا يوجد ما يسمىٰ بالسماء! عبثية ليس بعدها مزيد عبث، وحماقات ليس فوقها حماقة! فالشك والجهل واللامبالاة وعدم وجود الغاية، والاضطراب النفسي الشديد؛ أبرز صفات الملحدين، يقابل ذلك الموحِّد الحق المتصف بصفات الكمال البشري من الثبات واليقين والتؤدة، واتباع الحق حيث كان، وطلب البرهان والدليل علىٰ كل دعوىٰ، وكأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ترك لنا في النظر لحال الفريقين حجَّة بالغة تهدي للحق وتدلُّ عليه، بل النظر في حال فريق منهما كاف للوصول للحق واستبانته، فهل يشك عاقل في زيغ مذهب يقرر:

١-أنه لا يوجد لأعقد الصناعات وأبهرها صانع [١].

٢-وأن ملكوت السماء والأرض، وما يدور في الفضاء وما نعلم وما لا نعلم نشأ صدفة، وعن طريق العشوائية[٢].

٣-وأن الإنسان لا إرادة له فاعلة! وإنما يسبح في بحر الحتمية بل في محيطها.

٤-وأنه مجرد تفاعلات لذرات كميائية يسمونه بحثالة كميائية [٣].

٥-الملحد في تصوره عن نفسه حيوان متطور، بلا إرادة، ولا وعي إذن فلا مجال للقيم، والأخلاق حتىٰ المنفعة، والمصلحة التي هي قانونهم لا تصح أن تكون قانونًا بغير وعي وإرادة [٤].

---

(١)هذا الكون المتقن المعقد بقوانينه الصارمة الدقيقة وانتظامه المحكم لا يدل عندهم علىٰ وجود خالق متقن بديع إن مجرد وجود الشيئ دليل علىٰ موجده، فكيف إذا كان موجودا علىٰ صفة معقدة لا تقبل اختزال.

(٢) والعشوائية لها مجال يمكن وقوعها فيه، غير أن واقع الكون، في كل لبنة من لبناته ينفي بتعقيده وقوعه عن طريق العشوائية والصدفة، فإنه مبني بنية معقدة، ومعللة وعلتها ظاهرة بادية، وكلاهما يقضي بوجود الخالق المدبر ليس فحسب بل الخالق المدبر القدير البديع.

(٣) قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

(٤) «الناس علىٰ اختلاف مللهم، ونحلهم قد استقر عندهم أن الله سبحانه **يكره الظلم**، =

٦-والأعراف والتقاليد والقوانين عندهم باطلة كبطلان الأديان في تصورهم بل أشد فليس للخير معيار يميزه ولا للشر ميزان يزنه.

فكل الأموال والممتلكات مباحة أولها ماله وممتلكاته هو، وكل الأعراض مباحة أولها عرضه هو، وكل الدماء كذلك، ويطلق علىٰ الأول النفعية والثاني الغريزة وتلبية نداءها والثالث تحسين النسل، إنك تظلم الغابة والحياة الحيوانية البهيمية إذا ما وصفت ما مر ذكره .

❊ ❊ ❊

=

والفواحش، والفساد في الأرض، **ويمقت فاعل ذلك، ويحب العدل، والإحسان، والجود، والصدق، والإصلاح في الأرض، ويحب فاعل ذلك** فلما نزل الكتاب أثاب سبحانه أهل البر بأن وفقهم للإيمان به، جزاء لهم علىٰ برهم، وطاعتهم، وخذل أهل الفجور، والفحش، والظلم بأن حال بينهم وبين الاهتداء به» [الفوائد ص: ١٣٠] وهذا تصور أهل الإيمان وذاك تصور أهل الإلحاد ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨١].

الفصل الرابع:

ماذا قدم الإسلام للبشر
وماذا تجني البشرية من الإلحاد

ربما يطرأ في ذهن بعض القارئين لعنوان هذا الفصل الدماء والأشلاء والفساد في الأرض الذي وقع ويقع بأيدي الدواعش! وغيرهم ممن يبررون أفعالهم تبريرات دينية! في الوقت الذي ربما لاح في ذهنه كلمات الملاحدة في إطلاق الحريات – أيما كانت! –، وحينها يخرج بإجابة مغلوطة علىٰ السؤال الذي يجيب عنه هذا الفصل.

ولكني أعتقد أن وظيفة الباحثين هي ترتيب الأوراق المبعثرة – عَمدًا –، وتجلية الحقيقة حتىٰ يراها الناس كما هي لا كما يُراد منهم أن يروها، وإذن فعليهم أن يبيِّنوا الإسلام – الذي جاء به الرسول ﷺ – وثماره، ويبينوا الإلحاد وثماره بعيدًا عمن تطرفوا هناك وهنالك، وحينها تقع مساجلة حقيقية عادلة، بعيدًا عن مغالطات المخالفين أو دسائسهم.

وقبل الشروع في مقصودنا نريد أن نبيِّن حقيقة، وهي: أن الإلحاد في ذاته ليس منهجًا علميًّا – وإن تشدق الملحدون أنهم لا يصدرون إلا عن حقائق علمية –، الذي يوضِّح ذلك ويجلِّيه: أنهم لم يسلكوا مسلكًا علميًّا في أي مسألة خالفوا فيها ما أجمع عليه المؤمنون –[1]، وكذلك الأديان – فليست وظيفة الدين

(١) سبق بيان حقيقة الإلحاد كمنهج فكري، انظر صحيفة: (٥٩).

ويقرر هذا اللورد كلفن: كلما درسنا العلم بتمعن، كلما أخذنا بعيدًا عن الإلحاد». انظر: =

الوصول للقمر ولا اكتشاف الذرة! -، ومع هذا فإن القول بالعشوائية والصدفة من جهة والحتمية ونفي الإرادة والوعي من جهة مبطل للعلم معكر علىٰ السعي وراءه وهو لازم اعتقاد الملاحدة، ولو نظرنا إلىٰ ما قدَّمه علماء المسلمين من تسطير مبادئ العلم وقواعده بالنسبة لما قدَّمه علماء المادة ممن لا دين الملحدين؛ لوجدنا أن حقيقة الأمر تدلُّ علىٰ أنه لو لم يتقدَّم علماء المسلمين بكتابة وتنظير ما كتبوا ونظَّروا؛ لكان الغرب ليومنا هذا في عصورهم المظلمة! ويكفي لتوضيح ما كانت عليه أوربا قبل إشراق دعوة التوحيد عليها؛ شهادةُ روبرت بريفولت (Robert Briffault)، يقول:

=

حياة اللورد كلفن (صحيفة: ١٠٣)، ويقول ألبرت أينشتاين - مبيِّنًا حدود العلم، أن العلم - : «يتأكد مما يكون فقط، وليس مما ينبغي أن يكون». انظر: كتاب «خلاصة سنواتي الأخيرة» (صحيفة: ٢٥) =«out of my later years، **p: 25**»، فليس للمنهجية العلميَّة سبيل في الإثبات أو النفي - في حد زعم علماء المادة، وإلا فالعلم قاضٍ بفلسفته المتفق عليها في قواعد قانون العقلاء بإثبات وجود خالق لكل مخلوق ، وصانع لكل مصنوع.

قال آرثر شاولو Arthur Schawlow ما نصه:

«لا يمكن للعلم أن يثبت أو ينفي الدِّين، فقد أُسِّس الدين علىٰ الإيمان، ويبدو بالنسبة لي أنه عندما نواجه معجزة الحياة والكون؛ فيجب علىٰ المرء أن يسأل: لماذا؟ وليس فقط: كيف؟ الإجابات الوحيدة الممكنة هي إجابات دينية». انظر: «الكون والحياة والإله» (صحيفة: ١٠٥).

«لقد أطبق علىٰ أوربا ليل حالك من القرن الخامس إلىٰ القرن العاشر، وكان هذا الليل يزداد ظلامًا وسوادًا.

قد كانت همجية ذلك العهد أشد هولًا وأفظع من همجية العهد القديم؛ لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت، وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضي عليها بالزوال، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها في الماضي، كإيطاليا وفرنسا؛ فريسة الدمار والفوضىٰ والخراب»[١].

فهذه شهادة غالية، فالحق ما شهدت به الأعداء، ولن أذكر هنا شاهدًا علىٰ قولي بذكر نَمُوذَج من المشاهير عند العامة والخاصة، بل واحد ممن لا يعرف في أوساط العامة ذكرهم مع ذكر ما سطر - وليس ما يسطره عالم مسلم من علوم المادة دليلًا علىٰ صحة دينه، ولكنه دليل علىٰ أن الإسلام لم يمنع من العلم، لا بل قدم له الكثير - فهذا البتاني الحراني = «أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البَتَّاني». يكنىٰ بـ«البتاني» نسبة إلىٰ مسقط رأسه «بَتَّان»، كما يكنىٰ بـ«الرقّي» نسبة إلىٰ مدينة «الرقة»، التي حقَّق بها الكثير من إنجازاته العلميَّة.

ولد البتاني عام (٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) في «بتان» بإقليم حران، أمضىٰ حياته يرصد

(1) the making of humanity، robert briffault (p.164).

الأجرام السماوية بمرصد الرقة من عام (٢٦٤هـ) حتىٰ عام (٣٠٦هـ)، وتوفي عام (٣١٧هـ/ ٩٢٩م) قرب سامراء.

ذكر ابن النديم في «الفهرست» أن البتاني بدأ رحلة الرصد الفلكي عام (٢٦٤هـ). ومن الثابت أنه أقام فترة بمدينة الرقة، وفترة أخرىٰ بمدينة أنطاكية بشمال سوريا، حيث أنشأ المرصد الذي عُرف باسم «مرصد البتاني».

أهم إنجازات البتاني الفلكية: أرصاده الصحيحة التي تعد أدق ما أجراه الفلكيون العرب من أرصاد، ومن أدق الأرصاد التي أجريت حتىٰ القرن السابع عشر، الأمر الذي ما زال يثير دهشة وإعجاب علماء الفلك؛ نظرًا لافتقار البتاني للآلات الفلكية الدقيقة في وقته.

وكذلك صحَّح قيمة الاعتدالين الصيفي والشتوي، وأجرىٰ أرصادًا دقيقة للكسوف والخسوف، اعتمد عليها فلكيو الغرب في حساب تسارع القمر أثناء حركته خلال قرن من الزمان. وبرهن علىٰ احتمال حدوث الكسوف الحلقي للشمس، وحقق مواقع عدد كبير من النجوم، وتوصَّل إلىٰ نظرية قوية الأسانيد، توضِّح وتفسِّر أطوار القمر عند ولادته، وإنجازات أخرىٰ.

وفي حسابات المثلثات: وصل إلىٰ بعض المعادلات الأساسية والحلول المهمة في علم حساب المثلثات الكري –الكروية – (Spherical Trigonometry)،

وهو العلم الرياضي الذي أسهم إسهامًا كبيرًا في ارتقاء علم الفلك، وهو أول من استبدل «الوتر» الذي كان بطليموس يستعمله بـ«الجيب»، وإنجازات أخرىٰ.

كان الفلكيُّون قبل البتاني - وعلىٰ رأسهم بطليموس - يقولون بثبات ميل حركة أوج الشمس بحساب دائرة الفلك، إلىٰ أن جاء البتاني فبيَّن أن الميل يتغير مع الزمن، وأن أوج الشمس والتباعد المركزي لمسارها قد تغيَّر منذ عهد «أبرخس»، علىٰ الرغم من أن بطليموس أكد ثباتها. ولم ينس البتاني أن يوضح أن حركة أوج الشمس هي حركة الاعتدالين، ومن ذلك أوجد أن طول السنة المدارية هو (٣٦٥) يومًا و(٥) ساعات و(٤٦) دقيقة و(٣٤) ثانية، أي: بخطأ نقصانٍ مقداره دقيقتان و(٢٢) ثانية. بينما كان خطأ بطليموس بزيادةٍ مقدارها (٦) دقائق و(٢٦) ثانية.

وقد اعترف الفلكي الشهير «إدموند هالي» بدقة أرصاد البتاني، واعترف بذلك أيضًا «كاجوري»، كما أشار مؤرخ العلم «جورج سارتون» إلىٰ البتاني بإعجاب شديد باعتباره أعظم الفلكيين المسلمين. وقال عنه «جوزيف شاخت» في «تراث الإسلام»: «يعتبر البتاني مبرزًا بين جميع الفلكيين العرب والمسلمين».

وذكرت دائرة المعارف الإسلامية الإنجليزية: «البتاني فلكي ورياضي عربي مشهور، ويعتبر أحد أعلام رجال الفلك في العالم... ولم يُعلَم أحدٌ في الإسلام

بلغ مبلغ البتاني في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركتها. وهو أول من اكتشف (السمت) و(النظير) وحدد نقطتهما في السماء»[1].

وقد كرمته ناسا بوسامٍ اعتباري، وأطلق عليه بطليموس العرب! وما هذا إلا للتعمية علىٰ ما قدَّم! فنسبته لعالم فلكي غربي - لا سيما بطليموس - تحت عنوان التكريم له؛ مقصد خبيث، فإن «الفلكيين قبل البتاني وعلىٰ رأسهم بطليموس، يقولون بثبات ميل حركة أوج الشمس بحساب دائرة الفلك، إلىٰ أن جاء البتاني فبيَّن أن الميل يتغير مع الزمن، وأن أوج الشمس والتباعد المركزي لمسارها قد تغيَّر منذ عهد «أبرخس»، علىٰ الرغم من أن بطليموس أكد ثباتها. ولم ينس البتاني أن يوضح أن حركة أوج الشمس هي حركة الاعتدالين، ومن ذلك أوجد أن طوال السنة المدارية هو (٣٦٥) يومًا و(٥) ساعات و(٤٦) دقيقة و(٣٤) ثانية، أي بخطأ نقصانٍ مقداره دقيقتان و(٢٢) ثانية. بينما كان خطأ بطليموس بزيادةٍ مقدارها (٦) دقائق و(٢٦) ثانية.

كما أنه أوضح كيفية تغير القطر الظاهري للشمس والقمر، مثبتًا إمكانية حدوث الكسوف الحلقي للشمس، بعكس ما كان يظنه بطليموس.

---

(١) انظر للاستزادة: https: //ar.wikipedia.org/wiki، و«سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٥١٨) للإمام الذهبي، ونبَّه أنه كان ضالًّا فأسلم وتسمَّىٰ بمحمد، و«الأعلام» (٦/ ٦٧) للزركلي.

وقد استخدم البتاني في إثبات ذلك أجهزة فلكية من صنعه، منها جهاز لقياس الارتفاع الزاوي للشمس. هذا الجهاز الذي يتألف من عامود شاقولي طوله موضوع علىٰ مستوًىٰ أفقي يُقاس عليه طول ظل هذا العامود»[١].

ويتضح من هذا حقيقة مرادهم بهذه التسمية، كما صنعوا مع غيره من النقادين علوم اليونان المبينين خللها من علماء المسلمين، ويبقىٰ أن يقال: أنه لم يكن عالمًا بالإسلام ولا كان مقدَّمًا بين صفوف علماء الملَّة، غير أنه حين بحث أسلم، وكان عالمًا بالفلك والهيئة والهندسة، ولم يمنعه ذلك من دخول الإسلام واعتناقه ونفع البشرية بما نفع.

وليس المقصود هنا نفي وجود ملحد في التاريخ قدم للعلوم شيئًا، ولا إثبات أن العلوم المادية لم يقدمها للبشرية سوىٰ المسلمين، ولكن المقصود أن يعلم الملحد والموحد - جميعًا - أن الإسلام حثَّ علىٰ العلم ولم يمنعه، وقد نفر طائفة من أبنائه لذلك؛ قدموا للبشريَّة أصول العلم، ونقَّحوا ما كان قديمًا منه، ومن نظر لكثير من المصطلحات الطبية ومصطلحات الرياضيات؛ وجدها دخيلة من العربية الفصحىٰ للإنكليزية[٢]، وما ذاك إلا لأنَّ واضعي المصطلحات

---

(١) المصدر السابق.

(٢) منها أسماء بعض العلوم كـ: Alchemy & Chemistry= الخيمياء والكيمياء، =

كانوا من المسلمين العرب.

هذا في مجال المعرفة والعلم، ولا يختم الكلام عن العلم بين الإلحاد والدين إلا بعد تبيين مفارقة بين من نسب جور كهنة الكنيسة الأوربية علىٰ علماء المادة، وبين الدِّين في أصله من حيث هو يحثُّ علىٰ العلم ويفتح باب الاجتهاد في مظانه، وهذه مغالطة لا توصف بأقل من كونها مغالطة فاجرة يتعمدها الملاحدة وأفراخهم، والكلام في ذلك يتضح بمثالٍ:

«**وَكَانَ إِلَيَّ كَلَامُ الرَّبِّ قَائِلًا:** «وَأَنْتَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَهكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لِأَرْضِ إِسْرَائِيلَ: نِهَايَةٌ! قَدْ جَاءَتِ النِّهَايَةُ عَلَىٰ زَوَايَا الْأَرْضِ الأَرْبَعِ...»[(١)].

هذا نصٌّ توراتي تؤمن به الطائفتان الكتابيتان قبلنا، وهو نصٌّ محرَّف عن معناه قطعًا - إما بترجمةٍ أفسدته أو بتزوير بزيادة أو نقصٍ فيه -؛ فهو مردود بدلالة الوحي والعقل والعلم معًا، ولكن لك أن تتخيل أن مسألةً ككروية الأرض، وهي من المسلَّمَات المجمع عليها، يقررها القرآن الكريم ويجمع

=

Algebra= الجبر، ومنها مفردات بعض مصطلحاتها الخاصة كـ: Alcohol= الكحول، Alkaline=القلوي، Elixir= الإكسير، Soda= صودا... وغيرها الكثير.

(١) «حزقيال» (٧/ ٢). ومنهم اليوم من يقول: أن النص معناه الاتجاهات الأربعة لا وصف هيئة الأرض.

عليها علماء الدِّين[1]، وما زال الملحدون يقررون إلىٰ اليوم أن العلم شهد ببطلان الأديان في هذا الأمر! وأكاد أعتقد أنها مغالطة متعمدة تدلُّ علىٰ ابتعاد الملاحدة عن حيادية ونزاهة العلم في العرض والنقد.

وأما مجال إرساء المبادئ والقيم – التي لا تصح الحياة بدونها – فهذا بابٌ واسع، من تأمَّل فيه قاده إلىٰ حقيقة مراد جُلِّ الملاحدة من إلحادهم، وسبب ظاهر – لا أقول: خفي – لخروجهم عن ناموس العقول البشرية قبلهم، وفي هذا الباب يتجلَّىٰ لناظره صورة كارثية لما يقدمه الإلحاد للبشرية، وصورة مضيئة مشرقة لما قدمه ويقدمه الإيمان للبشرية، ويتجلىٰ ذلك من خلال: نظرة الفريقين للأخلاق من حيث القيود والأهمية.

وذلك يتضح – لك – حين تعلم أن الفكرة الإلحادية مبنيَّة علىٰ الخروج من القيود وعدم تقديسها، ولو كانت قيودًا دينية أصالة، وهي مجتمعية من حيث تعارف الناس علىٰ العمل بها، غير أنهم وبعد ترويج الإلحاد كفكر متحرر يقررون أن معيار القيم عندهم: المنفعة والمصلحة، كما يقرره **هوبز وأبيقور** – وغيرهما – **بعبارة صريحة: بأن مناط الحكم علىٰ الأعمال هي المنفعة، وأن المنفعة لا قيمة لها إلا إذا اجتلبت لذة واغتباطًا!**

---

(١) انظر للاستزادة كتاب: «حول كروية الأرض ودورانها»، من إصدارت مركز تبصير.

ومنهم من يقول: إن ما تعارف عليه الناس يدخل كمعيار لتحديد القيم المجتمعية قبولًا وردًّا. وهذا التناقض الظاهر بين إثبات معيار ولو هُولامي يضحكون به علىٰ السذج من العامة، وبين إعلان التحرُّر المطلق من القيود؛ ليس بأول تناقض صارخ في طرحهم.

ولكن دعك مما يقوله البعض، ولننظر إلىٰ ما يردده الأكثرية منهم، متغافلين - عن عدم مبالاة - رموزهم للمبدأ الأخلاقي برمته[1] - وهو كون المصلحة والمنفعة وعدم الإضرار قيدًا لتقرير القيم، ولكن هل وجود المصلحة والمنفعة يقرران أخلاقيَّة كل شيء يؤدي إليهما؟! فلو قُدِّر أن المصلحة والمنفعة تتحصل بالرشوة أو التزوير أو الكذب؛ تكون هذه الصفات قيمًا أخلاقية! وهل لو وجد الضرر علىٰ من يقوم باستخلاص رضيع من بين اللهب، أو مظلوم من يدي ظالمه يجعل إنقاذهما فعلًا غير أخلاقي! إنه معيار لتنظير عشوائي غير منضبط

---

(١) يقول نيتشه: إن القصور الإنساني مبعثه التزامه بالأخلاق!
ويقول دوكنز - بعد أن برر فعل الإنسان الخير فيمن يعرفهم بأنه ينتظر منهم مثله -!: «الصعوبة تأتي في شرح ميلنا إلىٰ مساعدة الغرباء. يقول: أعتقد أن الشرح الدرويني الصحيح لذلك هو أنه نوع من الإخفاق أو الخطأ!».
فإن كان فعل الخير خطأً أو معوِّقًا للإنسان عن كماله! فعن أيِّ قيود يتحدَّث الملحد بعد رفض هؤلاء لمبدأ الأخلاق أصلًا!

لإيهام السذج أن لدىٰ الطرح الإلحادي قيمًا أخلاقيَّة! والحقيقة ليست كذلك.

وهل كانت القنبلة الذرية، والحروب العالمية - الأولىٰ والثانية -، والمذابح الفاشية باسم الإلحاد تارة ضد اليهود، وباسم اليهودية تارة ضد المسلمين؛ هل كانت تندرج تحت القيم والأخلاق السامية؟! ألم تكن هذه الحوادث لمنفعة من قام بها؟! ألم يكن بول بوت، وفلاديمير لينين، وهتلر وغيرهم، من المصلحين عند أشياعهم الساعين لجلب المنفعة والمصلحة لأنفسهم؟! إن مبدأ المنفعة والمصلحة لا ينضبطان لإقامة صرحٍ من الأخلاق الحسنَة، ولو قيِّدَا بعدم الإضرار؛ فإن دوكنز وفاجن جريف يصرِّحان بعدم وجود حرج من مضاجعة النساء من المحارم! ما دام هنالك واق ذكري مخافة التشوُّهات الجينية! - ويخرج من يقول: إن مضاجعة المحارم من الجهة البيولوجية أنفع! - فأي قيمة لهذا الضابط إذن؟!

إن الراسم للإلحاد في مجتمعٍ يرىٰ كائنات مشوهة لا تعرف ثابتًا ولا محترمًا، يقضون نهارهم في السب والشتم للمقدسات، لا يرون حقًّا للجار ولا للضعيف، ولا يتحاشون المنكرات والفواحش، وأما ليلهم ففي مضاجعة الحيوانات والمحارم! غير ما يعتقدونه من التشكيك في المحسوسات! مرئيات ومسموعات وغيرها! فماذا يقدِّم الإلحاد كفكرة فلسفية للمجتمعات سوىٰ ما مر ذكره؟!

إن الإلحاد يقدِّم للبشرية صورة مطابقة للجاهليَّة الأولىٰ، غير أن أصحاب الجاهلية الإلحادية يعبدون أهواءهم ويقدِّسون مفكريهم، بخلاف أصحاب الجاهلية الأولىٰ فإنهم يقدسون ويعبدون أوثانهم، وهذه صورة يصوِّرها واحد من أهل الجاهلية؛ فانظرها ستجدها مطابقة لما يقدمه الإلحاد للبشرية:

قال جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ؛ فَكُنَّا عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ.

هذه صورة لا يرفضها الإلحاد، بل يراها حقًّا لمن أراد أن يجسدها، غير أن جعفر بن أبي طالب قال: فَكُنَّا عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ؛ فَدَعَانَا إِلَىٰ اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ»[1].

تأمَّل في الصورة المقابلة التي يقدمها الإسلام للمجتمع، ووازن بين

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم: (١٧٤٠).

الصورتين؛ تعرف أي الفريقين أحق بتقديم السعادة للبشرية، ويكفيك التأمل في آيات القرآن لترىٰ المنهج الأخلاقي القويم الذي يدعو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ المؤمنين به إليه؛ قال تعالىٰ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

ويقول - تبارك اسمه وتقدست أسماؤه -:

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى

جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [المعارج: ١٩ - ٣٦].

وفي نصٍّ جامعٍ لجوامع المُثل يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩٠، ٩١].

ويقول سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ففي كل هذه النصوص المحكمة يقدِّم الإسلام للبشرية تكاملًا وتكافلًا وانضباطًا للحقوق والواجبات، واستقامة لأمر الناس بينهم، بل من تأمَّل أركان الدين؛ عَلِم أنها مبنية علىٰ القواعد الصارمة للعدل والإحسان معًا؛ فالتوحيد حق الله لا يصرفه لغيره إلا ظالم، والصلاة والزكاة والصوم والحج أركان تؤدي إلىٰ تقرب العبد من ربه وسمُّوه عند خالقه، وتؤدِّي في الوقت نفسه إلىٰ انتظام المجتمعات وتقدُّمها؛ يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في شعيرة الحج:

﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ

يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وفي الزكاة مثال واضح للتكامل الذي لم يقدمه ناموس ولا نظام ولا دين للبشرية فضلًا عن الإلحاد بجحوده للأخلاق أصلًا! فقد قدم الإسلام للبشرية منظومة كاملة لا خلل فيها البتة بين الفرد وخالقه، وبين الفرد ونفسه، وبين الفرد وأسرته، وبين الفرد ومجتمعه، وبين الفرد والعالم أجمع، حفظت كل الحقوق وأبرمت كل الواجبات.

فترىٰ أصل الإسلام التوحيد منظمًا ما لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وما هو منه تفضلًا وتكرمًا، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ - ﷺ - لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُؤَخِّرَةُ الرَّحْلِ.

فَقَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ**».

قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ.

ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ**».

قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ.

ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ**».

قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ.

قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ؟**».

قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**».

ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ**».

قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ.

قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ**».

قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ**»(١).

تأمَّل في هذا جيدًا، واعلم أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَلَق الخَلْق ليرحمهم لا ليعذِّبهم، وجعل لهم - تكرمًا منه وفضلًا - من حسن المآل والحال إن هم وفوا حقه عليهم، وأدوا ما خلقهم لأجله وما امتحنهم به.

وفي الحديث عن يَحْيَىٰ، قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَعَبْدُ اللهِ بْنُ يَزِيدَ حَتَّىٰ نَأْتِيَ أَبَا سَلَمَةَ، فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِ رَسُولًا، فَخَرَجَ عَلَيْنَا وَإِذَا عِنْدَ بَابِ دَارِهِ مَسْجِدٌ – قَالَ: – فَكُنَّا فِي الْمَسْجِدِ حَتَّىٰ خَرَجَ إِلَيْنَا.

فَقَالَ: إِنْ تَشَاءُوا أَنْ تَدْخُلُوا وَإِنْ تَشَاءُوا أَنْ تَقْعُدُوا هَاهُنَا.

(١) متفق عليه.

فَقُلْنَا: لَا، بَلْ نَقْعُدُ هاهُنَا، فَحَدِّثْنَا.

قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

كُنْتُ أَصُومُ الدَّهْرَ وَأَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ – قَالَ: – فَإِمَّا ذُكِرْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَإِمَّا أَرْسَلَ إِلَيَّ – فَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ لِي: «**أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ**».

قُلْتُ: بَلَىٰ يَا نَبِيَّ اللهِ، وَلَمْ أُرِدْ بِذَلِكَ إِلَّا الْخَيْرَ.

قَالَ: «**فَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ**».

قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: «**فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا** – قَالَ: – **فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ نَبِيِّ اللهِ** – ﷺ – **فَإِنَّهُ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ**».

قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَمَا صَوْمُ دَاوُدَ؟

قَالَ: «**كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَاقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ**».

قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: «**فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عِشْرِينَ**».

قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: «**فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرٍ**».

قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: «**فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَىٰ ذَلِكَ. فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**».

قَالَ: فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ. قَالَ: وَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّكَ يَطُولُ بِكَ عُمْرٌ».

قَالَ: فَصِرْتُ إِلَي الَّذِي قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا كَبِرْتُ وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ قَبِلْتُ رُخْصَةَ نَبِيِّ اللهِ - ﷺ -.(١)

وفي صيانة المجتمع من الحيف والظلم، وتحميل الفرد مسؤولية الجماعة يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

ويبث النبي ﷺ في نفوس الشباب ذلك، ففي الحديث: عن أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: إِنَّ فَتًىٰ شَابًّا أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، وَقَالُوا: مَهْ مَهْ.

فَقَالَ ﷺ: «**ادْنُهْ**»، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا.

قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**».

---

(١) متفق عليه.

قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ.

قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**».

قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟**».

قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ.

قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**».

قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟**».

قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ.

قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**».

قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟**».

قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ.

قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**».

قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟**».

قَالَ: لَا وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ.

قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**».

قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**».

قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَىٰ يَلْتَفِتُ إِلَىٰ شَيْءٍ»[1].

وكما أعلىٰ الشرع من المسؤولية المجتمعية أعلىٰ من المسؤولية الفردية، وحثَّ الناس أن يلحظوا هذه المسؤولية بشتىٰ الطرق؛ بالترهيب بذكر العقاب العاجل والآجل، والترغيب بالثواب العاجل والآجل، وجَعَل لذلك قاعدة في الزجر في قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وفي الثواب بقوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦][2].

والنصوص الدينية أكثر من أن يحويها سفر صغير كهذا الذي بين أيدينا، ولعل المنصف المحايد من المتشككين أو المشككين بعد عرض نبذة مختصرة علىٰ ما سيرسمه الإلحاد من واقع في ضوء فلسفته الحياتية، وعرض ما يأمر به الدِّين السماوي الخاتم ليكون واقعًا مشاهدًا عند تفعيل أوامره واجتناب نواهيه؛

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم: (٢٢٢١١).

(٢) وقد فُسِّرت الحسنىٰ بالجنة، والزيادة بالنظر لوجه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وعلىٰ ذلك تكون الآية في الثواب الأخروي، ويستدل - حينها - علىٰ الترغيب في الثواب الدنيوي والأخروي - معًا - بقوله تعالىٰ:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

لعل من رأىٰ كلا الصورتين اتضح له الجواب علىٰ سؤالنا: ماذا يقدم الإسلام للبشرية، وما عساه يقدم الإلحاد لها.

ولكن يبقىٰ استشكال ربما يُطرح هنا، وهو: إذا كان هذا هو مراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فلماذا أوجد الشرَّ إذن؟

وهذا الاستشكال من أظهر ما يتشبث به الملحدون، وهو ما قادني إلىٰ أن أسطر فصلًا أتناول فيه هذا الأمر.

❊ ❊ ❊

الفَصْلُ الخَامِسُ:

مشكلة الشر بين التوحيد والإلحاد

يتخذ الملاحدة من مشكلة الشر أو ما يُطلق عليه بالإنكليزية«Problem of Evil» آلة صيد يصيدون بها المقهورين والمظلومين، وصرَّحوا بأنها أكبر الأسباب التي يدلف الناس بسببها إلىٰ الإلحاد؛ كما قرر ذلك أنتوني فلو (Antony Flew)[1]، بل جعلها مايكل تولي (Michael Tooly) الحجة المركزية للإلحاد! [2]، علىٰ حسب تعبيره، وليست هذه المغالطة وليدة اليوم، وإنما هي قديمة ربما ترجع إلىٰ أقدم مظلوم لم يفهم لِمَ هو هنا، ولا إلىٰ أين المصير، ولَمْ يعلم عن حكمة الخالق ورحمته شيئًا، ولابد قبل الشروع في بيان تهافت هذه الأغلوطة لابد من طرحها أولًا.

قيل: إن أول من تكلَّم في مشكلة الشر ليجعلها دليلًا علىٰ عدم وجود الله**!** هو ديموقريطس - فيلسوف إغريقي (٤٧٠ – ٣٦١ ق.م) - غير أني لم أظفر بنقل عنه، وقيل: إن أبيقور (٣٤١ – ٢٧٠ ق.م) هو أول من حاجج بهذه الأغلوطة، وبغض الطرف عن أول من سبق بها؛ فإن ذلك لا يهم، فإن الباحث في هذه الأغلوطة لا يهمه منشؤها أكثر من أن يهمَّه فَهْمَها، وبالتبعية فَهْم حجيتها؛ ليتسنىٰ له فَهْم أوجهِ نقضِها.

---

(1) thers is a god: how the eorld's most notorioud changed his mind (New York: Harper One، 2007،(p. 13.

(٢) وقد بنىٰ عليها مايكل مارتن كتابه «الإلحاد تبرير فلسفي»، في الفصل الثاني منه الخاصِّ بأدلة الإلحاد!

تبدأ الأغلوطة بقولهم:

١ – إذا وُجد إله قادر، وعالم بالخير للعالم، فإنه لن يوجد في العالَمِ الشرُّ!

٢ – يوجد في العالم شرٌّ.

٣ – إذن لا يوجد إله!

بيد أن القول تجاه هذه المغالطة لن يخرج عن أربعة أقوال، لا خامس لها.

١ – إما بنفي وجود الله، ونفي وجود الشر!

٢ – أو بنفي وجود الله! وإثبات وجود الشر.

٣– أو بإثبات وجود الشر، ونسبته لخالقٍ سوىٰ الله!

٤– أو بإثبات الشر النسبي، ونفي وجود الشر المطلق، وإثبات وجود الخالق الحكيم.

والأخير هو قول عامة المحققِّين للأمر من علماء المسلمين خاصَّة، ولكن هل بحث وجود الشر كعنصر من عناصر الموجودات في الكون يتعلَّق بقضية وجود الله من عدمها؟ ينبغي أن يجاب عن هذا السؤال بداية.

ولتوضيح المقصود نضرب مثالًا:

لو كان لرجلٍ ولدان، وهو بهما خبير وعلىٰ ضبط شئونهما قادر، ولكنهما متشاكسان يضير أحدهما الآخر في إطار ما، أيصحُّ لعاقلٍ أن يقول: ما دام الأب

يحب لهما الخير ويكره لهما الشرَّ وهو قادر عليهما أمرًا وإنفاذًا، ومع ذلك هما متشاكسان يضر بعضهما الآخر - بصورة ما - فإن ثبوت ذلك ينفي وجود الأب من أساسه! فإِنْ وُجد الأب لن يقع بينهما **شيء** ضار!!

إن هذا المثال كفيلٌ بأن يُغلق هذا الباب الذي يظن كثير من الباحثين أنه لن يغلق، فيتَّضح من ذلك كون وجود الشر النسبي لا ينافي وجود الخالق، بل هو خاصٌّ بالأقدار التي يقدِّرها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وتمحيص نوع الشر الموجود كعنصر من عناصر هذه المغالطة له دور في فهم كون وجود الشر لا ينافي وجود الله، بل لا ينافي حكمة الله أيضًا ورحمته.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

«الله لم يخلق شيئًا إلا لحكمة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، وقال: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ [النمل: ٨٨]؛ فالمخلوق باعتبار الحكمة التي خُلق لأجلها خير وحكمة، وإن كان فيه شر من جهة أخرىٰ؛ فذلك أمر عارض جزئي ليس شرًّا محضًا، بل الشر الذي يقصد به الخير الأرجح؛ هو خير من الفاعل الحكيم، وإن كان شرًّا لمن قام به. وظنَّ الظانُّ أن الحكمة المطلوبة التامة قد تحصل مع عدمه؛ إنما يقوله لعدم علمه بحقائق الأمور وارتباط بعضها ببعض؛ فإن الخالق إذا خلق الشيء فلا بد من خلق لوازمه؛ فإن

وجود الملزوم بدون وجود اللازم ممتنع»[١].

وهذا الكلام من أوضح ما يكون لبيان حقيقة الشر الموجود في الأرض، فإنه لا يوجد شرٌّ محض، وإنما هو نسبي كما لا يخفىٰ، تأمَّل في هذا القانون الذي ينظم مواعيد سير المركبات الثقيلة، كيف يكون حلًّا لتكدس الطرقات؛ فيكون خيرًا للمارة وعامة الناس، ويكون شرًّا علىٰ أصحاب المركبات الثقيلة؛ فيكون خيرًا من وجهٍ وشرًّا من وجه، ومثله ما يكون من احتياج الناس بعضهم لبعض، فهل يصحُّ للعالم بالذرة أن يتذمر من أجل احتياجه لكاسح الطرقات؟!

قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

إذن وجود بعض الناس فتنة لبعض سببه الاختبار، وظهور الصابر من القانط، وقال تعالىٰ: **﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾** [البقرة: ٢٥١].

«**أي**: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكشفُ شَرَّ أُناسٍ عن غيرهم، بما يخلقه ويقدِّره من الأسباب؛ لفسدت الأرض، وأهلك القوي الضعيف»[٢].

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٥١٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤٣٥).

فمن عَلِم ذلك عَلِم حالَ الموحِّد وكيف هو مستسلم لأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، أمره عليه كله خير؛ إن أصابه الضراء صبر فكان له خيرًا؛ لأنه يعلم عِلْم اليقين أنه ما أصابه إنما هو بحكمة ورحمة وعدل؛ فلا ظلم في أقدار الله أبدًا، ولا يقضي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علىٰ العبد بشيءٍ إلا لأجل خير له علمه أو لم يعلمه، وأن الشرَّ لا ينتج كونًا إلا بمخالفة للشرع الحكيم، وقد أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأن يُكفَّ شرُّ كلِّ ذي شرٍّ؛ فالموحِّد معه من القواعد العقليَّة والشرعيَّة ما يجعله علىٰ عِلْم تامٍّ بأنه لا شر محض في الكون، بل هو شرٌّ نسبي. وإما أن يسلط علىٰ العبد لحكمة من الله فيها من الخير العميم له، أو هو من فعله مخالفًا أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن الله سبحانه أمر بفعل الخيرات واجتناب الشر في أي صورة كان، وبذلك يحيىٰ المسلم مطمئنًا.

وأما الملحد فهل لو هرب الملحد من الدِّين، وأنكر وجود الخالق بهذه المغالطة؛ هل لو فعل ذلك لن يقع عليه شرٌّ؟! إنها مغالطة سخيفة منه؛ فإن الإلحاد الذي لا يفهم علَّة وجود الشر النسبي لا يقدم علاجًا لوجوده، بل يقف عن حد نفي وجود الخالق الذي أوجد الشر ليظهر الخير، وأوجد الباطل ليتضح الحقُّ، وجعل الليل ساترًا لآية النهار، وجعل النهار مزيلًا آية الليل، وبضدِّها تتبيَّن الأشياء. فلو علم الملحد أن الله أوجده ليمتحنه؛ لم يسأل: لماذا يوجد في الكون الشرُّ؟

أليس من لوازم امتحان المكلفين وجود السبيلين؟!

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾

إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾ [البلد: ٨ – ١٢].

إنَّ سؤالًا قد صدر به الملاحدة دعوتهم للإلحاد لَيبدو سخيفًا سمجًا لا معنىٰ له منطقيًّا حين يتنبه السامع له أنه لا يدخل في معارضة مع وجودٍ من عدمه لخالق الكون، ويبدو كذلك حين يتبدىٰ للسامع له أن معادلة الشر التي ينفي بها رحمة الإله الذي لابد أن يكون رحيمًا؛ حين يعلم أن الشر النسبي في دنيا الله إنما هو بحكمة منه؛ ليرحم به، ويمتحن به.

فإن علم الملحد أنَّ وجود الشر النسبي متعلِّق بامتحان الله لخلقه؛ عَلِم أنه قد رسب في هذا الامتحان، إذ بلغ بالسوء في فهمه وتجاوزه أسوأ مردود! وهل أسوء من عدم معرفة الحكمة من إيجاد الله له، بل والكفر به سبحانه لأجل هذا الجهل! نعم، إن غاية ما يستدلون به في قضية الشر هو الجهل، دليلهم أنهم جاهلون بحكمة الله وبمراده من خلقه.

ثم ماذا قدَّم الإلحاد لمعالجة وجود الشر، قدَّم نسف قاعدة الأخلاق والقيم! وقدم للمظلوم أن ظالمه لن يحاسب في الآخرة، فإن لم يقتص هنا فقد سوَّىٰ الموت بينه وبين ظالمه! إن التأمُّل فيما يقدِّمه الإلحاد يؤكِّد لك حقيقة كون الشر

سببه مخالفة الدين والخروج عن تعاليمه، ولنتأمل في أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في قوله:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧].

تأمل كيف صدر الله الآية بـ: (إنْ) وكأنه أراد أن يشير للعفو، ثم جعل الانتصاف للمظلوم من حقوقه، وبه يردع الظالم، ثم حثَّ علىٰ الصبر وأنَّ فيه الخير؛ فأيُّ علاج لمحنة وجود الظالم أمثل من هذا العلاج؟!

والآن تلوح لك قضية وجود الشر في حياة رجلين؛ أحدهما: موحِّد يؤمن بالله ويسلِّم لقضائه وقدره، يفعل الخير ويتجنَّب الشرَّ، ويعلم أنه لو نزل بساحته ظُلم ظالمٍ فإنَّ الله ينصفه في الدنيا بإقامة الحقِّ علىٰ الظالم، وفي الآخرة أيضًا بمحاسبة الله للظالم وردِّ مظلمة المظلوم، وأن الموحد يملك بما بصره الله به معرفة حِكَم الله تعالىٰ الظاهرة في تسلُّط بعض الخلق علىٰ بعضٍ، وأنه متىٰ ساد ناموس (قانون) الموحد ساد الخير والعدل.

والآخر: ملحد لا يؤمن بوجود الله، ويؤمن بوجود الشر، بل ويمارِس منه ما يحبُّ، ويمارَس عليه منه ما يكره، ويحيىٰ حياة المقهورين تارة، وحياة الطاغين تارات، يعتقد أن الشرَّ لا حلَّ لزوالِهِ ولا عاقبة علىٰ مَنِ اجترحه، ولا لمن ذاق وباله، وإنما حياة الغابة؛ متىٰ وصلت يدك لشيء فلتفعل به ما تشاء!

تتمة: فصل في طريقة أهل الإسلام في فهم قضية الشر:

تناول كثير من علماء المسلمين هذه القضية وما يدور حولها، وبينوا الواجب فهمه واعتقاده على المسلمين المنشغلين بمقالات أعداء الرسل، واخترت لك -أيها القارئ الكريم- نقلا ! بعد الاختصار -ما استطعت- عن واحد من كبار علماء المسلمين، يورد فيه ما تدور حوله تلكم المعضلة من معضلات ومغالطات، وهو عن العلامة ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ من كتابه شفاء العليل (٣/ ٩٧٣ - وما بعدها-[1]-)، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: ٢٦]

(فصدَّر سبحانه الآية): بتفرده بالملك كله، وأنه هو سبحانه الذي يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء، لا غيره. **فالأول**: تفرده بالملك، **والثاني**: تفرده بالتصرف فيه. وأنه سبحانه هو الذي يعز من يشاء، بما يشاء من أنواع العز، ويذل من يشاء بسلب ذلك العز عنه، وأن الخير كله بيديه ليس لأحد معه منه شيء.

(ثم ختمها بقوله): ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦] فتناولت الآية ملكه

(١) ومن أراد البسط فكتابه المشار إليه كله في تلكم القضية، وهو يقع في أربع مجلدات، فليراجعه من شاء.

وحده، وتصرفه، وعموم قدرته، وتضمنت أن هذه التصرفات كلها بيده، وأنها كلها خير فسلبه الملك عمن يشاء، وإذلاله من يشاء خير، **وإن كان شرًا بالنسبة إلىٰ المسلوب الذليل فإن هذا التصرف دائر بين العدل، والفضل، والحكمة، والمصلحة**، لا تخرج عن ذلك.

وهذا كله خير يُحمد عليه الرب، ويثنىٰ عليه به، كما يحمد ويثنىٰ عليه بتنزيهه عن الشر، وأنه ليس إليه = كما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يثني علىٰ ربه بذلك في دعاء الاستفتاح في قوله: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِيْ يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ، وَإِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ**..»[1].

فتبارك وتعالىٰ عن نسبة الشر إليه، بل كل ما نسب إليه فهو خير، **والشر إنما صار شرًا لانقطاع نسبته، وإضافته إليه، فلو أضيف إليه = لم يكن شرًا -كما سيأتي بيانه- وهو سبحانه: خالق الخير، والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه، وفعله. وخلقه، وفعله، وقضاؤه، وقدره خير كله.**

ولهذا تنزه سبحانه عن **الظلم**، الذي حقيقته: **وضع الشيء في غير موضعه** - كما تقدم- فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله. **والشر**

---

(١) جزء من حديث طويل فيه دعاء استفتاحه ﷺ في صلاة الليل، أخرجه مسلم في صحيحه كتاب/ صلاة المسافرين، وقصرها. باب/ الدعاء في صلاة الليل وقيامه. (١/ ٥٣٤) رقم:٧٧١.

وضع الشيء في غير محله، فإذا وضع في محله لم يكن شرًا. فعلم أن الشر ليس إليه، وأسماؤه الحسنىٰ تشهد بذلك **فإن منها**: القدوس، السلام، العزيز، الجبار، المتكبر. **فالقدوس**: المنزه من كل شر، ونقص، وعيب، كما قال أهل التفسير: **هو الطاهر من كل عيب، المنزه عما لا يليق به**. وهذا قول أهل اللغة[1].

وأصل الكلمة من الطهارة، والنزاهة، ومنه: (بيت المقدس) لأنه مكان يُتطهر فيه من الذنوب، ومن أَمَّه [2] لا يريد إلا الصلاة فيه رجع من خطيئته كيوم ولدته أُمُّه، ومنه سميت الجنة (حظيرة القدس) لطهارتها من آفات الدنيا، ومنه سمي جبريل (روح القدس) لأنه طاهر من كل عيب، ومنه قول الملائكة : ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠] **فقيل**: المعنىٰ ونقدس أنفسنا لك. فعدىٰ باللام، وهذا ليس بشيءٍ! **والصواب**: أن المعنىٰ نقدسك، وننزهك عما لا يليق بك. **هذا قول جمهور أهل التفسير**.

وقال ابن جرير: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة:٣٠] نتسبك إلىٰ ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس، ومما أضاف إليك أهل الكفر بك».

قال: وقال بعضهم: «نعظمك ونمجدك» **قاله أبو صالح، وقال مجاهد:**

(١) انظر: «القاموس المحيط» مادة: ق د س = (٢/ ٢٣٩).

(٢) يعني : قصده.

«نعظمك ونكبرك»» انتهىٰ [١].

وقال بعضهم: «ننزهك عن السوء فلا ننسبه إليك» [٢].

واللام فيه علىٰ حدها في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] لأن المعنىٰ: تنزيه الله لا تنزيه نفوسهم لأجله. **قلت**: ولهذا قرن هذا اللفظ بقولهم: «نسبح بحمدك» فإن التسبيح تنزيه الله -سبحانه- عن كل سوء، **قال ميمون بن مهران**: «سبحان الله كلمة يُعظَّم بها الربُّ، ويُحاشَىٰ بها من السوء» [٣]، **وقال ابن عباس**: «هي تنزيه لله من كل سوء» [٤].

وأصل اللفظة من المباعدة، من قولهم: سبحت في الأرض، إذا تباعدت فيها، ومنه [قوله تعالىٰ:] ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] فمن أثنىٰ علىٰ الله، ونزهه عن السوء فقد سبحه، ويقال: سبح الله، وسبح له، وقدسه، وقدس له.

وكذلك اسمه السلام: فإنه الذي سلم من العيوب، والنقائص، ووصفه بالسلام أبلغ في ذلك من وصفه بالسالم **ومن موجبات وصفه بذلك سلامة خلقه**

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (١/ ١٧٥).

(٢) تفسير البغوي (١/ ٧٩).

(٣) الضوء المنير (صحيفة: ١٩٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٤٦).

من ظلمه لهم، فسلم سبحانه من إرادة الظلم، والشر، ومن التسمية به، ومن فعله ومن نسبته إليه = فهو السالم من صفات النقص، وأفعال النقص، وأسماء النقص، المسلم لخلقه من الظلم. ولهذا وصف سبحانه ليلة القدر بأنها سلام، والجنة بأنها دار السلام، وتحية أهلها السلام، وأثنىٰ علىٰ أوليائه بالقول السلام، كل ذلك السالم من العيوب.

وكذلك الكبير من أسمائه، والمتكبر، قال قتادة، وغيره: «هو الذي تكبر عن السوء»[1] **وقال أيضا**: «الذي تكبر عن السيئات»[2]، **وقال مقاتل**: «المتعظم عن كل سوء»[3]، **وقال أبو إسحاق**: «الذي يكبر عن ظلم عباده»[4].

وكذلك اسمه العزيز: الذي له العزة التامة، **ومن تمام عزته براءته عن كل سوء، وشر، وعيب، فإن ذلك ينافي العزة التامة.**

وكذلك اسمه العلي: الذي علا عن كل عيب، وسوء، ونقص، ومن كمال علوه أن لا يكون فوقه شيء بل يكون فوق كل شيء.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٣٦).

(٢) زاد المسير (٨/ ٢٢٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٣٦).

(٤) تفسير البغوي (٨/ ٨٨).

وكذلك اسمه الحميد: وهو الذي له الحمد كله، فكمال حمده **يوجب أن لا ينسب إليه شر، ولا سوء، ولا نقص، لا في أسمائه، ولا في أفعاله، ولا في صفاته = فأسماؤه الحسنىٰ تمنع نسبة الشر، والسوء، والظلم إليه، مع أنه سبحانه الخالق لكل شيء** فهو الخالق للعباد وأفعالهم وحركاتهم وأقوالهم.

والعبد إذا فعل القبيح المنهي عنه، كان قد فعل الشر، والسوء، **والرب سبحانه هو الذي جعله فاعلا لذلك وهذا الجعل منه** = عدل، وحكمة، وصواب، **فجعله فاعلا خير، والمفعول شر قبيح**. فهو سبحانه بهذا الجعل **قد وضع الشيء موضعه** لما له في ذلك من الحكمة البالغة التي يحمد عليها فهو خير وحكمة ومصلحة وإن كان وقوعه من العبد عيبًا ونقصًا وشرًا.

وهذا أمر معقول -في الشاهد- فإن الصانع الخبير إذا أخذ الخشبة العوجاء، والحجر المكسور، واللبنة الناقصة، فوضع ذلك في موضع يليق به، ويناسبه **كان ذلك منه عدلًا وصوابًا يمدح به**، وإن كان في المحل عوج، ونقص، وعيب يذم به المحل.

ومن وضع الخبائث في موضعها، ومحلها اللائق بها، كان ذلك حكمة وعدلًا وصوابًا، **وإنما السفه والظلم** أن يضعها في غير موضعها فمن وضع العمامة علىٰ الرأس، والنعل في الرجل، والكحل في العين، والزبالة في الكناسة، فقد وضع الشيء موضعه ولم يظلم النعل والزبالة إذ هذا محلهما.

ومن أسمائه سبحانه العدل والحكيم: الذي لا يضع الشيء إلا في موضعه فهو المحسن، الجواد، الحكيم، العدل في كل ما خلقه، وفي كل ما وضعه في محله، وهيأه له. وهو سبحانه له الخلق، والأمر، فكما أنه في أمره لا يأمر إلا بأرجح الأمرين، ويأمر بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإذا تعارض أمران رجح أحسنهما، وأصلحهما، وليس في الشريعة أمر يفعل إلا ووجوده للمأمور خير من عدمه، ولا نهي عن فعل إلا وعدمه خير من وجوده.

فإن قلتَ: فإذا كان وجوده خيرًا من عدمه فكيف لا يشاء وجوده؟ فإذا كان عدمه خيرًا من وجوده فكيف يشاء وجوده؟ (١) فالمشيئة العامة تنقض عليك هذه القاعدة الكلية !؟

قلتُ: لا تنقضها، لأن وجوده وإن كان خيرًا من عدمه فقد يستلزم وجوده فوات محبوب له، هو أحب إليه من وقوع هذا المأمور من هذا المعنىٰ وعدم المنهي وإن كان خيرًا من وجوده فقد يكون وجوده وسيلة وسببًا إلىٰ ما هو

(١) **مقصود استشكال المستشكل**: ما طلب فعله شرعًا فإن وجوده خير من عدمه، ومع ذلك يوجد من فعل الطائعين ويعدم بمعصية العاصين فكيف يكون وجوده هو الخير ويعدم من وجه وهذا الوجه داخل في المشيئة العامة يعنىٰ الكونية، وكذلك القول فيما طلب الشرع تركه فإن تركه هو الخير ويوجد من يفعله وفعله لا يخرج عن المشيئة العامة أيضا.

أحب إليه من عدمه[1].

والرب سبحانه إذا أمر بشيء فقد أحبه ورضيه وأراده وبينه وهو لا يحب شيئًا إلا ووجوده خير من عدمه، وما نهىٰ عنه فقد أبغضه وكرهه وهو لا يبغض شيئًا إلا وعدمه خير من وجوده **هذا بالنظر إلىٰ ذات هذا وهذا وأما باعتبار إفضائه إلىٰ ما يحب ويكره فله حكم آخر**[2] ولهذا أمر سبحانه عباده أن يأخذوا بأحسن ما أنزل إليهم فالأحسن هو المأمور به وهو خير من المنهي عنه.

وإذا كانت هذه سنته في أمره وشرعه فهكذا سنته في خلقه، وقضائه، وقدره[3] فما أراد أن يخلقه أو يفعله كان أن يخلقه ويفعله خيرًا من أن لا يخلقه ولا يفعله وبالعكس وما كان عدمه خيرًا من وجوده فوجوده شر وهو لا يفعله بل هو منزه عنه والشر ليس إليه.

---

(١) فإن مراد الله من امتحان خلقه، ووقوع جزاؤه -عدلًا وفضلًا- لا ينفك عنه الامتثال والامتناع لشرعه ممن كلفهم واختبرهم به.

(٢) فإنه حين ركب في الرجال غريزة تجاه المرأة، والعكس، وامتحن المكلفين في هذا بشرع تجاوزه يفضي إلىٰ الوعيد، والتزامه يفضي للوعد، ووقع في كونه كلا الفعلين من المكلفين فلولا ذلك لما عرف الخير، ولا ثبت المراد بإكرام أهل الكرامة وعقاب من لا خلاق له.

(٣) **فأشار بالجواب الأول** للشر الذي يقع في أفعال المخلوقين، وتعلق ذلك بالمشيئة العامة، **وأشار** بهذا لما يقع مما يظهر في الكون مما لا تدخل للمخلوقين في إيجاده وعدمه.

فإن قلتَ: فلم خلقه وهو شر؟

قلتُ: خلقه له وفعله خير لا شر، فإن الخلق والفعل قائم به سبحانه والشر يستحيل قيامه به واتصافه به وما كان في المخلوق من شر فلعدم إضافته ونسبته إليه، والفعل والخلق يضاف إليه فكان خيرًا، والذي شاءه كله خير، والذي لم يشأ وجوده بقي علىٰ العدم الأصلي = وهو الشر. فإن الشر كله عدم، وأن سببه جهل وهو عدم العلم، أو ظلم وهو عدم العدل، وما يترتب علىٰ ذلك من الآلام فهو من عدم استعداد المحل وقبوله لأسباب الخيرات واللذات.

فإن قلتَ: كثير من الناس يطلق القول بأن الخير كله من الوجود ولوازمه والشر كله من العدم ولوازمه والوجود خير والشر المحض لا يكون إلا عدمًا.

قلتُ: هذا اللفظ فيه إجمال، فإن أريد به أن كل ما خلقه الله وأوجده ففيه الخير، ووجوده خير من عدمه، وما لم يخلقه ولم يشأه فهو المعدوم الباقي علىٰ عدمه، ولا خير فيه إذ لو كان فيه خير لفعله فإنه بيده الخير فهذا صحيح.

فالشر العدمي: هو عدم الخير وإن أريد أن كل ما يلزم الوجود فهو خير، وكل ما يلزم العدم فهو شر، **فليس بصحيح**.

فإن الوجود قد يلزمه شر مرجوح والعدم قد يلزمه خير راجح. مثال الأول: النار والمطر والحر والبرد والثلج ووجود الحيوانات فإن هذا موجود ويلزمه

شر جزئي مغمور بالنسبة إلىٰ ما في وجود ذلك من الخير وكذلك المأمور به قد يلزمه من الألم والمشقة ما هو شر جزئي مغمور بالنسبة إلىٰ ما فيه من الخير.

وتحقيق الأمر: أن الشر نوعان:

١- شر محض حقيقي من كل وجه.

٢-وشر نسبي إضافي من وجه دون وجه.

فالأول: لا يدخل في الوجود إذ لو دخل في الوجود لم يكن شرًا محضًا.

والثاني: هو الذي يدخل في الوجود فالأمور التي يقال هي شرور إما أن تكون أمورًا عدمية، أو أمورًا وجودية.

فإن كانت عدمية: فإنها إما أن تكون ١- عدمًا لأمور ضرورية للشيء في وجوده ٢- أو ضرورية له في دوام وجوده، وبقائه ٣-أو ضرورية له في كماله وإما أن تكون ٤- غير ضرورية له في وجوده ولا بقائه ولا كماله وإن كان وجودها خيرًا من عدمها.

فهذه أربعة أقسام، فالأول: كالإحساس والحركة والنفس للحيوان.

والثاني: كقوة الاغتذاء والنمو للحيوان المغتذي النامي.

والثالث: كصحته وسمعه وبصره وقوته.

والرابع: كالعلم بدقائق المعلومات التي العلم بها خير من الجهل، وليست ضرورية له .

وأما الأمور الوجودية فوجود كل ما يضاد الحياة، والبقاء، والكمال كالأمراض، وأسبابها، والآلام، وأسبابها.

والموانع الوجودية التي تمنع حصول الخير، ووصوله إلىٰ المحل القابل له المستعد لحصوله كالمواد الردية المانعة من وصول الغذاء إلىٰ أعضاء البدن وانتفاعها به وكالعقائد الباطلة والإرادات الفاسدة المانعة لحصول أضدادها للقلب.

إذا عرف هذا، فالشر بالذات هو عدم ما هو ضروري للشيء في وجوده، أو بقائه، أو كماله. ولهذا العدم لوازم هي من شر -أيضا- فإن عدم العلم، والعدل يلزمهما من الجهل، والظلم ما هو شرور وجودية. وعدم الصحة والاعتدال يلزمهما من الألم والضرر ما هو شر وجودي.

وأما عدم الأمور المستغنىٰ عنها = كعدم الغنىٰ المفرط، والعلوم التي لا يضر الجهل بها، فليس بشر في الحقيقة، ولا وجودها سببا للشر. فإن العلم منه حيث هو علم، والغنىٰ منه حيث هو غنىٰ لم يوضع سببًا للشر، وإنما يترتب الشر من عدم صفة تقتضي الخير كعدم العفة، والصبر، والعدل في حق الغنىٰ فيحصل الشر له في غناه بعدم هذه الصفات.

وكذلك عدم الحكمة ووضع الشيء موضعه. وعدم إرادة الخير في حق صاحب العلم يوجب ترتب الشر له علىٰ ذلك فظهر أن الشر لم يترتب إلا علىٰ عدم وإلا فالموجود من حيث وجوده لا يكون شرًا ولا سببًا للشر.

فالأمور الوجودية ليست شرورًا بالذات، بل بالعرض من حيث أنها تتضمن عدم أمور ضرورية، أو نافعة فإنك لا تجد شيئًا من الأفعال التي هي شر إلا وهي كمال بالنسبة إلىٰ الفاعل وجهة الشر فيه بالنسبة إلىٰ أمور أخر.

مثال ذلك أن الظلم يصدر عن قوة تطلب الغلبة، والقهر وهي القوة الغضبية التي كمالها بالغلبة، ولهذا خلقت فليس في ترتب أثرها عليها شر من حيث وجوده بل الشر عدم ترتب أثرها عليها البتة فتكون ضعيفة عاجزة مقهورة.

وإنما الشر الوجودي الحاصل، شر إضافي بالنسبة إلىٰ المظلوم = بفوات نفسه، أو ماله، أو تصرفه، وبالنسبة إلىٰ الظالم لا من حيث الغلبة، والاستيلاء، ولكن من حيث وضع الغلبة، والقهر، والاستيلاء في غير موضعه فعدل به من محله إلىٰ غير محله، ولو استعمل قوة الغضب في قهر المؤذي الباغي من الحيوانات الناطقة، والبهيمة لكان خيرًا ولكن عدل به إلىٰ غير محله فوضع القهر، والغلبة موضع العدل، والنصفة، ووضع الغلظة، موضع الرحمة فلم يكن الشر في وجود هذه القوة ولا في ترتب أثرها عليها من حيث هما كذلك بل في

إجرائها في غير مجراها.

ومثال ذلك: (ماء جار في نهر إلىٰ أرض يسقيها، وينفعها فكماله في جريانه حتىٰ يصل إليها، فإذا عدل به عن مجراه، وطريقه إلىٰ أرض يضرها، ويخرب دورها كان الشر في العدول به عما أعدله، وعدم وصوله إليه) = فهكذا الإرادة والغضب أعين بهما العبد ليتوصل بهما إلىٰ حصول ما ينفعه، وقهر ما يؤذيه ويهلكه فإذا استعملا في ذلك فهو كمالها وهو خير وإذا صرفا عن ذلك إلىٰ استعمال هذه القوة في غير محلها وهذه في غير محلها صار ذلك شرًا إضافيًا نسبيًا.

[مثال آخر] وكذلك النار كمالها في إحراقها فإذا أحرقت ما ينبغي إحراقه فهو خير وإن صادفت ما لا ينبغي إحراقه فأفسدته فهو شر إضافي بالنسبة إلىٰ المحل المعين.

وكذلك القتل -مثلا- هو استعمال الآلة القاطعة في تفريق اتصال البدن فقوة الإنسان علىٰ استعمال الآلة خير، وكون الآلة قابلة للتأثير خير، وكون المحل قابلا لذلك خير، وإنما الشر نسبي إضافي وهو وضع هذا التأثير في غير موضعه والعدول به عن المحل المؤدي إلىٰ غيره وهذا بالنسبة إلىٰ الفاعل وأما بالنسبة إلىٰ المفعول فهو شر إضافي أيضا وهو ما حصل له من التألم وفاته من الحياة وقد يكون ذلك خيرًا له من جهة أخرىٰ، وخير لغيره.

وكذلك الوطء فإن قوة الفاعل وقبول المحل كمال، ولكن الشر في العدول به عن المحل الذي يليق به إلىٰ محل لا يحسن، ولا يليق. **وهكذا حركة اللسان وحركات الجوارح كلها جارية علىٰ هذا المجرىٰ** فظهر أن دخول الشر في الأمور الوجودية **إنما هو بالنسبة والإضافة** لا أنها من حيث وجودها وذواتها شر وكذلك السجود ليس هو شرًا من حيث ذاته ووجوده فإذا أضيف إلىٰ غير الله كان شرًا **بهذه النسبة والإضافة.**

وكذلك كل ما وجوده كفر، وشرك إنما كان شرًا بإضافته إلىٰ ما جعله كذلك كتعظيم الأصنام، فالتعظيم من حيث هو تعظيم لا يمدح ولا يذم إلا باعتبار متعلقه فإذا كان تعظيمًا لله، وكتابه، ودينه، ورسوله كان خيرًا محضًا، وإن كان تعظيمًا للصنم، وللشيطان فإضافته إلىٰ هذا المحل جعلته شرًا كما أن إضافة السجود إلىٰ غير الله جعلته كذلك.

ومما ينبغي أن يعلم: أن الأشياء المكونة من موادها شيئا فشيئا كالنبات والحيوان **أما إن يعرض لها النقص الذي هو شر في ابتدائها، أو بعد تكونها.**

فالأول: هو بأن يعرض لمادتها من الأسباب ما يجعلها ردية المزاج ناقصة الاستعداد فيقع الشر فيها، والنقص في خلقها بذلك السبب، وليس ذلك بأن الفاعل حرمه، وأذهب عنه أمرًا وجوديًا به كماله، بل لأن المنفعل لم يقبل

الكمال والتمام، وعدم قبوله أمر عدمي ليس بالفاعل، وأما الذي بالفاعل فهو الخير الوجودي الذي يتقبل به كماله وتمامه ونقصه والشر الذي حصل فيه هو من عدم إمداده بسبب الكمال فبقي علىٰ العدم الأصلي وبهذا يفهم سر قوله تعالىٰ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] . فإن ما خلقه فهو أمر وجودي به كمال المخلوق، وتمامه.

وأما عيبه ونقصه: فمن عدم قبوله، وعدم القبول ليس أمرًا مخلوقًا يتعلق بفعل الفاعل **فالخلق الوجودي ليس فيه تفاوت والتفاوت إنما حصل بسبب هذا الخلق**، فإن الخالق سبحانه لم يخلق له استعدادًا فحصل التفاوت فيه من عدم الخلق لا من نفس الخلق فتأمله والذي إلىٰ الرب سبحانه هو الخلق، وأما العدم فليس هو بفاعل له فإذا لم يكمل في مادة الجنين في الرحم ما يقتضي كماله، وسلامة أعضائه، واعتدالها حصل فيه التفاوت، وكذلك النبات.

وأما الثاني، وهو أن الشر الحاصل بعد تكونه وإيجاده، فهو نوعان -أيضا-:

أحدهما: أن يقطع عنه الإمداد الذي به كماله بعد وجوده، كما يقطع عن النبات إمداده بالسقي، وعن الحيوان إمداده بالغذاء، فهو شر مضاف إلىٰ العدم -أيضا-، وهو عدم ما يكمل به.

الثاني: حصول مضاد مناف، وهو نوعان: **أحدهما:** قيام مانع في المحل يمنع

تأثير الأسباب الصالحة فيه، كما تقوم بالبدن أخلاط ردية تمنع تأثير الغذاء فيه، وانتفاعه به، وكما تقوم بالقلب إرادات واعتقادات فاسدة تمنع انتفاعه بالهدىٰ والعلم، فهذا الشر وإن كان وجوديًا، وأسبابه وجودية، فهو أيضا من عدم القوة والإرادة التي يدفع بها ذلك المانع فلو وجدت قوة وإرادة تدفعه لم يتأثر المحل به، مثاله أن غلبة الأخلاط، واستيلائها من عدم القوة المنضجة لها أو القوة الدافعة لما يحتاج إلىٰ خروج وكذلك استيلاء الإرادات الفاسدة لضعف قوة العفة، والصبر، واستيلاء الاعتقادات الباطلة لعدم العلم المطابق لمعلومه فكل شر ونقص فإنما حصل لعدم سبب ضده وعدم سبب ضده ليس فاعلا له بل يكفي فيه بقاؤه علىٰ العدم الأصلي.

الثاني: مانع من خارج كالبرد الشديد، والحرق، والغرق، ونحو ذلك مما يصيب الحيوان، والنبات فيحدث فيه الفساد فهذا لا ريب أنه شر وجودي مستند إلىٰ سبب وجودي ولكنه شر نسبي إضافي وهو خير من وجه آخر فإن وجود ذلك الحر، والبرد، والماء يترتب عليه مصالح وخيرات، كلية هذا الشر بالنسبة إليها جزئي فتعطيل تلك الأسباب لتفويت هذا الشر الجزئي يتضمن شرًا أكثر منه، وهو فوات تلك الخيرات الحاصلة بها فإن ما يحصل بالشمس والريح والمطر والثلج والحر والبرد من مصالح الخلق أضعاف أضعاف ما يحصل بذلك من مفاسد جزئية هي في جنب تلك المصالح كقطرة في بحر هذا لو كان

شرها حقيقيًا فكيف وهي خير من وجه، وشر من وجه، وإن لم يعلم جهة الخير فيها كثير من الناس، فما قدرها الرب سبحانه سدىٰ ولا خلقها باطلًا.

وعند هذا فيقال: الوجود إما أن يكون خيرًا من كل وجه، أو شرًا من كل وجه، أو خيرًا من وجه شرًا من وجه، **وهذا علىٰ ثلاثة أقسام**: قسم خيره راجح علىٰ شره، وعكسه، وقسم مستو خيره وشره وإما أن لا يكون فيه خير، ولا شر.

فهذه ستة أقسام، ولا مزيد عليها، فبعضها واقع، وبعضها غير واقع.

فأما القسم الأول: وهو الخير المحض من كل وجه الذي لا شر فيه بوجه ما، فهو أشرف الموجودات علىٰ الإطلاق، وأكملها، وأجلها، وكل كمال وخير فيها فهو مستفاد من خيره، وكماله في نفسه، وهي تستمد منه، وهو لا يستمد منها، وهي فقيرة إليه، وهو غني عنها، كل منها يسأله كمالَه.

فالملائكة تسأله ما لا حياة لها إلا به، وإعانته علىٰ ذكره، وشكره، وحسن عبادته، وتنفيذ أوامره، والقيام بما جعل إليهم من مصالح العالم العلوي، والسفلي، وتسأله أن يغفر لبني آدم.

والرسل تسأله أن يعينهم علىٰ أداء رسالاته، وتبليغها، وأن ينصرهم علىٰ أعدائهم، وغير ذلك من مصالحهم في معاشهم، ومعادهم.

وبنو آدم كلهم يسألونه مصالحهم، علىٰ تنوعها، واختلافها. **والحيوان كله**

يسأله رزقه، وغذاءه، وقوته، وما يقيمه، ويسأله الدفع عنه،. **والشجر، والنبات** يسأله غذاءه، وما يكمل به.

والكون كله يسأله إمداده بقاله وحاله: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فأكف جميع العالم ممتدة إليه بالطلب، والسؤال، ويده مبسوطة لهم بالعطاء، والنوال يمينه ملأىٰ لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، وعطاؤه وخيره مبذول للأبرار، والفجار. له كل كمال، ومنه كل خير، له الحمد كله، وله الثناء كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، تبارك اسمه، وتباركت أوصافه، وتباركت أفعاله، وتباركت ذاته، فالبركة كلها له، ومنه، لا يتعاظمه خير سُئِله، ولا تنقص خزائنه علىٰ كثرة عطائه، وبذله، فلو صور كل كمال في العالم صورة واحدة، ثم كان العالم كله علىٰ تلك الصورة، لكان نسبة ذلك إلىٰ كماله، وجلاله، وجماله دون نسبة سراج ضعيف إلىٰ عين الشمس.

وأما الأقسام الخمسة الباقية: فلا يدخل منها في الوجود إلا ما كانت المصلحة، والحكمة، والخير في إيجاده أكثر من المفسدة.

والأقسام الأربعة لا تدخل في الوجود. أما الشر المحض الذي لا خير فيه فذاك ليس له حقيقة بل هو العدم المحض.

فإن قيل: فإبليس شر محض، والكفر، والشرك كذلك وقد دخلوا في الوجود

فأي خير في إبليس، وفي وجود الكفر؟

قيل: في خلق إبليس من الحكم، والمصالح، والخيرات التي ترتبت علىٰ وجوده ما لا يعلمه إلا الله -كما سننبه علىٰ بعضه- فالله سبحانه لم يخلقه عبثا، ولا قصد بخلقه إضرار عباده، وهلاكهم فكم لله في خلقه من حكمة باهرة، وحجة قاهرة، وآية ظاهرة، ونعمة سابغة، وهو وإن كان للأديان، والإيمان كالسموم للأبدان، ففي إيجاد السموم من المصالح، والحكم، ما هو خير من تفويتها.

وأما الذي لا خير فيه ولا شر فلا يدخل -أيضا- في الوجود: فإنه عبث فتعالىٰ الله عنه، وإذا امتنع وجود هذا القسم في الوجود فدخول ما الشر في إيجاده أغلب من الخير أولىٰ بالامتناع.

ومن تأمل هذا الوجود علم أن الخير فيه غالب وأن الأمراض وإن كثرت فالصحة أكثر منها، واللذات أكثر من الآلام، والعافية أعظم من البلاء، والغرق، والحرق، والهدم، ونحوها وإن كثرت فالسلامة أكثر، ولو لم يوجد هذا القسم الذي خيره غالب لأجل ما يعرض فيه من الشر لفات الخير الغالب وفوات الخير الغالب شر غالب.

ومثال ذلك النار فإن في وجودها منافع كثيرة، وفيها مفاسد، لكن إذا قابلنا بين مصالحها، ومفاسدها، لم تكن لمفاسدها نسبة إلىٰ مصالحها.

وكذلك المطر، والرياح، والحر، والبرد: وبالجملة فعناصر هذا العالم السفلي خيرها ممتزج بشرها، ولكن خيرها غالب، وأما العالم العلوي فبريء من ذلك.

فإن قيل: فهلا خلق الخلاق الحكيم هذه خالية من الشر بحيث تكون خيرات محضة؟

- **فإن قلتم**: اقتضت الحكمة خلق هذا العالم ممتزجًا فيه اللذة بالألم، والخير بالشر فقد كان يمكن خلقه علىٰ حالة لا يكون فيه شر كالعالم العلوي سلمنا أن وجود ما الخير فيه أغلب من الشر أولىٰ من عدمه فأي خير ومصلحة في وجود رأس الشر كله ومنبعه وقدوة أهله فيه إبليس؟

وأي خير في إبقائه إلىٰ آخر الدهر؟

وأي خير يغلب في نشأة يكون منها تسعة وتسعون إلىٰ النار وواحد في الجنة؟

وأي خير غالب حصل بإخراج الأبوين من الجنة، حتىٰ جرىٰ علىٰ الأولاد ما جرىٰ، ولو داما في الجنة لارتفع الشر بالكلية؟

وإذا كان قد خلقهم لعبادته، فكيف اقتضت حكمته أن صرف أكثرهم عنها، ووفق لها الأقل من الناس؟

وأي خير يغلب في خلق الكفر، والفسوق، والعصيان، والظلم، والبغي؟

وأي خير في إيلام غير المكلفين = كالأطفال، والمجانين؟

فإن قلتم: فائدته التعويض أنقض عليكم بإيلام البهائم!

ثم وأي خير في خلق الدجال، وتمكينه من الظهور، والافتتان به؟

- وإذ قد اقتضت الحكمة ذلك فأي خير حصل في تمكينه من إظهار تلك الخوارق، والعجائب ؟

وأي خير في السحر، وما يترتب عليه من المفاسد، والمضار؟

وأي خير في إلباس الخلق شيعًا، وإذاقة بعضهم بأس بعض؟

وأي خير في خلق السموم، وذات السموم والحيوانات العادية المؤذية بطبعها؟

وأي خير في خراب هذه البنية بعد خلقها في أحسن تقويم وردها إلىٰ أرذل العمر بعد استقامتها وصلاحها؟

وكذلك خراب هذا الدار ومحو أثرها فإن كان وجود ذلك خيرًا غالبا فإبطاله إبطال للخير الغالب؟

دع هذا كله فأي خير راجح، أو مرجوح في النار وهي دار الشر الأعظم، والبلاء الأكبر؟

-ولا خلاص لكم عن هذه الأسئلة إلا بسد باب الحكم، والتعليل، وإسناد

الكون إلىٰ محض المشيئة، أو القول بالإيجاب الذاتي، وأن الرب لا يفعل باختياره! ومشيئته، وهذه الأسئلة إنما ترد علىٰ من يقول بالفاعل المختار فلهذا لجأ القائلون إلىٰ إنكار التعليل جملة فاختاروا أحد المذهبين وتحيزوا إلىٰ إحدىٰ الفئتين، وإلا فكيف تجمعون بين القول بالحكمة والتعليل وبين هذه الأمور ؟

فالجواب بعد أن نقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، بل في تحقيق هذه الكلمات الجواب الشافي: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦] ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

﴿۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧]. ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ

خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٧]، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] .

بل هو في غاية التناسب، واقع على أكمل الوجوه، وأقربها إلى حصول الغايات المحمودة، والحِكَم المطلوبة، فلم يكن تحصل تلك الحِكَم، والغايات التي انفرد الله سبحانه بعلمها على التفصيل(١)، وأطلع من شاء من عباده على أيسر اليسير منها، إلا بهذه الأسباب والبدايات.

وقد سأله الملائكة المقربون عن جنس هذه الأسئلة وأصلها فقال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] وأقروا له بكمال العلم، والحكمة وأنه في جميع أفعاله على صراط مستقيم وقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، ولما ظهر لهم ببعض حكمته فيما سألوا عنه، وأنهم لم يكونوا يعلمون قال: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣] .

ونحن نذكر أصولًا مهمة نبين بها جواب هذه الأسئلة:

الأصل الأول: إثبات عموم علمه سبحانه، وإحاطته بكل معلوم، وأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض، بل قد أحاط

---

(١) وليس تفويض تفصيل ذلم هو جواب أهل الإيمان، فإن في الإجمال الظاهر الجلي جواب على كل اشكال وسيأتي بيان ذلك إجمالًا، وتفصيلًا!

بكل شيء علمًا، وأحصىٰ كل شيء عددًا[1].

... نسبة علوم الخلائق إلىٰ علمه سبحانه، كنسبة قدرتهم إلىٰ قدرته، وغناهم إلىٰ غناه، وحكمتهم إلىٰ حكمته، وإذا كان أعلم الخلق به علىٰ الإطلاق يقول:

(١) والخلاف في هذا الأصل شاذ ينكره المعقول، والمنقول، وهو واقع «مع فرقتين، **إحداهما**: أعداء الرسل كلهم وهم الذين ينفون علمه بالجزئيات، وحاصل قولهم: أنه لا يعلم موجودًا البتة فإن كل موجود جزئي معين فإذا لم يعلم الجزئيات لم يكن عالما بشيء من العالم العلوي والسفلي.

والفرقة الثانية: غلاة القدرية الذين اتفق السلف علىٰ كفرهم، الذين يقولون لا يعلم أعمال العباد حتىٰ يعلموها، ولم يعلمها قبل ذلك، ولا كتبها ولا قدرها فضلا عن أن يكون شاءها وكونها وقول هؤلاء معلوم البطلان بالضرورة من أديان جميع المرسلين وكتب الله المنزلة وكلام الرسول صلىٰ الله عليه وسلم مملوءة بتكذيبهم وإبطال قولهم وإثبات عموم علمه الذي لا يشاركه فيه خلقه ولا يحيطون بشيء منه إلا بما شاء أن يطلعهم عليه ويعلمهم به وما أخفاه عنهم ولم يطلعهم عليه لا نسبة لما عرفوه إليه إلا دون نسبة قطرة واحدة إلىٰ البحار كلها» [أ] ولازم كلا القولين يؤدي إلىٰ إنكار ما جاء في الكتب السماوية، وإبطال شبهة الملحدين أنفسهم بنقد الإلهيين بشبهة وجود الشر، ولازم قولهم الأول باطل عقلا ونقلا، والثاني باطل من جهة استدلالهم.

[أ] ما بين معقوفين من كلام العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله، من كتابه شفاء العليل (١٠٠٦/٣).

«**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك**»[1].

ويقول في دعاء الاستخارة: «**فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب**»[2].

ويقول سبحانه للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] ويقول سبحانه لأعلم الأمم، وهم أمة محمد ﷺ:

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]

ويقول لأهل الكتاب: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥] وتقول رسله يوم القيامة حين يسألهم: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] .

وهذا هو الأدب المطابق للحق في نفس الأمر فإن علومهم، وعلوم الخلائق تضمحل، وتتلاشىٰ في علمه سبحانه، كما يضمحل ضوء السراج الضعيف في عين الشمس، فمن أظلم الظلم، وأبين الجهل، وأقبح القبيح، وأعظم القحة والجراءة أن يعترض من لا نسبة لعلمه إلىٰ علوم الناس التي لا نسبة لها إلىٰ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب/ الصلاة، باب/ ما يقال في الركوع والسجود (١/ ٣٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب/ الدعوات، باب رقم: ٤٨- (٧/ ١٦٢).

علوم الرسل التي لا نسبة لها إلىٰ علم رب العالمين عليه، ويقدح في حكمته ويظن أن الصواب والأولىٰ أن يكون غير ما جرىٰ به قلمه، وسبق به علمه، وأن يكون الأمر بخلاف ذلك، فسبحان الله رب العالمين تنزيها لربوبيته وإلهيته وعظمته وجلاله عما لا يليق به من كل ما نسبه إليه الجاهلون الظالمون .

فسبحان الله كلمة يحاشىٰ الله بها عن كل ما يخالف كماله من سوء ونقص، وعيب، فهو المنزه التنزيه التام من كل وجه، وبكل اعتبار عن كل نقص متوهم، وإثبات عموم حمده، وكماله، وتمامه ينفي ذلك.

واتصافه بصفات الإلهية التي لا تكون لغيره، وكونه أكبر من كل شيء في ذاته، وأوصافه، وأفعاله ينفي ذلك لمن رسخت معرفته في معنىٰ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر وسافر قلبه في منازلها، وتلقىٰ معانيها من مشكاة النبوة لا من مشكاة الفلسفة، والكلام الباطل، وآراء المتكلمين فهذا أصل يجب التمسك به في هذا المقام، وأن يعلم أن عقول العالمين، ومعارفهم، وعلومهم، وحكمهم تقصر عن الإحاطة بتفاصيل حكمة الرب سبحانه في أصغر مخلوقاته.

الأصل الثاني: أنه سبحانه حي حقيقة، وحياته أكمل الحياة، وأتمها وهي حياة تستلزم جميع صفات الكمال، ونفي أضدادها من جميع الوجوه.

ومن لوازم الحياة الفعل الاختياري فإن كل حي فعال، وصدور الفعل عن

الحي بحسب كمال حياته، ونقصها، وكل من كانت حياته أكمل من غيره، كان فعله أقوىٰ، وأكمل، وكذلك قدرته، ولذلك كان الرب سبحانه علىٰ كل شيء قدير، وهو فعال لما يريد.

وقد ذكر البخاري في كتاب خلق الأفعال عن نعيم بن حماد أنه قال: «الحي هو الفعال» **وكل حي فعال فلا فرق بين الحي، والميت إلا بالفعل، والشعور وإذا كانت الحياة مستلزمة للفعل**

= **وهو الأصل الثالث: فالفعل الذي لا يعقل الناس سواه هو الفعل الاختياري، الإرادي، الحاصل بقدرة الفاعل، وإرادته، ومشيئته**، وما يصدر عن الذات من غير سفير قدرة منها، ولا إرادة لا يسميه أحد من العقلاء فعلًا، وإن كان أثرًا من آثارها، ومتولدا عنها كتأثير النار في الإحراق، والماء في الإغراق، والشمس في الحرارة.

فهذه آثار صادرة عن هذه الأجسام، وليست أفعالًا لها، وإن كانت بقوىٰ وطبائع جعلها الله فيها فالفعل، والعمل من الحي العالم لا يقع إلا بمشيئته، وقدرته.

وكون الرب سبحانه حيًا فاعلًا مختارًا مريدًا مما اتفقت عليه الرسل، والكتب، ودل عليه العقل، والفطرة، وشهدت به الموجودات ناطقُها، وصامتُها جمادُها وحيوانُها، علويُها وسفليها.

فمن أنكر فعل الرب الواقع بمشيئته، واختياره، وفعله، فقد جحد ربه وفاطره، وأنكر أن يكون للعالم رب.

الأصل الرابع: أنه سبحانه ربط الأسباب بمسبباتها شرعًا وقدرًا، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني، والشرعي، وأمره الكوني القدري، ومحل ملكه وتصرفه.

فإنكار الأسباب، والقوى، والطبائع جحد للضروريات، وقدح في العقول، والفطر، ومكابرة للحس، وجحد للشرع، والجزاء.

فقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم، ومعادهم، والثواب، والعقاب، والحدود، والكفارات، والأوامر، والنواهي، والحِل، والحرمة، كل ذلك مرتبطا بالأسباب قائمًا بها، بل العبد نفسه، وصفاته، وأفعاله سبب لما يصدر عنه، بل الموجودات كلها، أسباب ومسببات.

والشرع كله أسباب، ومسببات، والمقادير أسباب ومسببات، والقَدرُ جار عليها متصرف فيها فالأسباب محل الشرع، والقدر والقرآن مملوء من إثبات الأسباب كقوله:

﴿**بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة: ١٠٥]، ﴿**بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٩]، ﴿**ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ**﴾ [الحج: ١٠]، ﴿**فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ [الشورى: ٣٠]،

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [النساء: ١٥٥] إلى قوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٥٦، ١٥٧].

وقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٢]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٣]، وقوله: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ١٠]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٨]، ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦]، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤].

وقوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ

سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٥، ٥٦]، وقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ [ق: ٩]، وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [الأعراف: ٥٧]

وقوله: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦]، وقوله: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤] الآية، وقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ [النبأ: ١٤-١٦].

وكل موضع رتب فيه الحكم الشرعي، أو الجزائي، علىٰ الوصف؛ أفاد كونه سببًا له؛ كقوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٣٨]، وقوله: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل: ٨٨] .

وهذا أكثر من أن يستوعَب، وكل موضع تضمن الشرط والجزاء أفاد سببية الشرط والجزاء، وهو أكثر من أن يستوعب كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقوله: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وكل موضع رتب فيه الحكم علىٰ ما قبله بحرف أفاد التسبب، وكل موضع تقدم ذكرت فيه الباء تعليلًا لما قبلها بما بعدها أفاد التسبب، وكل موضع صرح فيه بأن كذا جزاء لكذا أفاد التسبيب فإن العلة الغائية عله للعلة الفاعلية، ولو تتبعنا ما يفيد إثبات الأسباب من القرآن والسنة لزاد علىٰ عشرة آلاف موضع! ولم نقل ذلك مبالغة بل حقيقة ويكفي شهادة الحس، والعقل، والفطر.

ولهذا قال من قال من أهل العلم تكلم قوم في إنكار الأسباب فأضحكوا ذوي العقول علىٰ عقولهم، وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد فشابهوا المعطلة الذين أنكروا صفات الرب، ونعوت كماله، وعلوه علىٰ خلقه، واستواءه علىٰ عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لملائكته، وعباده، وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد فما أفادهم إلا تكذيب الله، ورسله، وتنزيهه عن كل كمال، ووصفه بصفات المعدوم، والمستحيل.

الأصل الخامس: أنه سبحانه حكيم لا يفعل شيئًا عبثًا، ولا لغير معنىٰ ومصلحة، وحِكَمه هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة، لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل.

وقد دل كلامه، وكلام رسوله، علىٰ هذا وهذا في مواضع لا تكاد تحصىٰ ولا

سبيل إلىٰ استيعاب أفرادها [وهذا يحتاج إلىٰ نوع إسهاب لأنه مزيل للشبهة من أصلها.] فنذكر بعض أنواعها.

النوع الأول: التصريح بلفظ الحكمة وما تصرف منه.

كقوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ [القمر: ٥]، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، وقوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والحكمة هي: العلم النافع، والعمل الصالح، وسمي حكمة لأن العلم والعمل قد تعلقا بمتعلقهما وأوصلا إلىٰ غايتيهما، وكذلك لا يكون الكلام حكمة حتىٰ يكون موصلا إلىٰ الغايات المحمودة، والمطالب النافعة، فيكون مرشدا إلىٰ العلم النافع والعمل الصالح فتحصل الغاية المطلوبة، فإذا كان المتكلم به لم يقصد مصلحة المخاطبين، ولا هداهم، ولا إيصالهم إلىٰ سعادتهم، ودلالتهم علىٰ أسبابها وموانعها، ولا كان ذلك هو الغاية المقصودة المطلوبة، ولا تكلم لأجلها، ولا أرسل الرسل، وأنزل الكتب لأجلها، ولا نصب الثواب، والعقاب لأجلها لم يكن حكيمًا، ولا كلامه حكمة فضلًا عن أن تكون بالغة.

النوع الثاني: إخباره أنه فعل كذا لكذا وأنه أمر بكذا لكذا.

كقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٧] .

وقوله: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقوله: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ٢٩]، وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ [الجن: ٢٧، ٢٨].

أي ليتمكنوا بهذا الحفظ والرصد من تبليغ رسالاته فيعلم الله ذلك واقعًا.

وقوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١]، وقوله: ﴿ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ [الأنفال: ٨]، وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقوله: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثر: ٣١]...

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقوله: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣]، وقوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

فإن ما بعد اللام في هذا ليس هو الغاية المطلوبة، ولكن لما كان الفعل منتهيًا إليه، وكان عاقبة الفعل دخلت عليه لام التعليل، وهي في الحقيقة لام العاقبة، فالجواب من وجهين، **أحدهما**: أن لام العاقبة إنما تكون في حق من هو جاهل أو هو عاجز عن دفعها فالأول: كقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] **والثاني**: كقول الشاعر:

لِدُوا للموت وابنوا للخراب ... فكُلُّكُمُ يصير إلىٰ ذهاب

وأما من هو بكل شيء عليم وعلىٰ كل شيء قدير فيستحيل في حقه دخول هذه اللام، وإنما اللام الواردة في أفعاله، وأحكامه لام الحكمة، والغاية المطلوبة.

الجواب الثاني: إفراد كل موضع من تلك المواضع بالجواب أما قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه، وتقديره له، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه، وقدره

فهو سبحانه قدر ذلك، وقضىٰ به ليكون لهم عدوًا وحزنًا، وذكر فعلهم دون قضائه لأنه أبلغ في كونه حزنا لهم، وحسرة عليهم فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه علىٰ يديه، إذا أصيب به كان أعظم لحزنه، وغمه، وحسرته، من أن لا يكون فيه صنع ولا اختيار فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون، وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه، وحكمته الباهرة.

وأن هذا الذي يذبح فرعون إلا بناء في طلبه هو الذي يتولىٰ تربيته في حجره، وبيته باختياره، وإرادته ويكون في قبضته، وتحت تصرفه فذكر فعلهم به، فهذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر وقد أعلمنا سبحانه أن أفعال عباده كلها واقعة بقضائه وقدره.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣] .

فلا ريب أن هذا تعليل لفعله المذكور = وهو امتحان بعض خلقه ببعض، كما امتحن السادات، والأشراف بالعبيد، والضعفاء والموالي فإذا نظر الشريف والسيد إلىٰ العبد والضعيف والمسكين قد أسلم أَنُفَ وحمىٰ أن يسلم معه، أو بعده، ويقول: هذا يسبقني إلىٰ الخير، والفلاح، وأتخلف أنا فلو كان ذلك خيرًا وسعادة ما سبقنا هؤلاء إليه!.

فهذا القول منهم هو بعض الحكم والغاية المطلوبة بهذا الامتحان، فإن هذا القول دال علىٰ إباء، واستكبار، وترك الانقياد للحق بعد المعرفة التامة به، وهذا وإن كان علة **فهو مطلوب لغيره**.

والعلل الغائية تارة تطلب لنفسها، وتارة تطلب لغيرها، فتكون وسيلة إلىٰ مطلوب لنفسه، وقول هؤلاء ما قالوه وما يترتب عليه هذا القول موجب لآثار مطلوبة للفاعل من إظهار عدله، وحكمته، وعزه، وقهره، وسلطانه، وعطائه من يستحق عطاءه، ويحسن وضعه عنده، ومنعه من يستحق المنع، ولا يليق به غيره.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] الذين يعرفون قدر النعمة ويشكرون المنعم عليهم فيما من عليهم من بين من لا يعرفها ولا يشكر ربه عليها وكانت فتنة بعضهم ببعض لحصول هذا التمييز الذي ترتب عليه شكر هؤلاء وكفر هؤلاء.

وأما قوله: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ﴾ [الحج: ٥٣] .

فهي علىٰ بابها، وهي لام الحكمة، والتعليل. أخبر الله –سبحانه– أنه جعل ما ألقاه الشيطان في أمنية الرسول[1] محنة واختبارا لعباده، فافتتن به **فريقان** وهم

(١) يقصد سياق الآية ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ =

الذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم.وعلم المؤمنين أن القرآن والرسول حق، وأن إلقاء الشيطان باطل، فآمنوا بذلك، وأخبتت له قلوبهم فهذه غاية مطلوبة مقصودة بهذا القضاء والقدر.

والله سبحانه جعل القلوب علىٰ ثلاثة أقسام: مريضة، وقاسية، ومخبتة. وذلك لأنها إما أن تكون يابسة جامدة، لا تلين للحق اعترافًا، وإذعانًا، أو لا تكون كذلك، **فالأول**: حال القلوب القاسية الحجرية التي لا تقبل ما يبث فيها، ولا ينطبع فيها الحق، ولا ترتسم فيها العلوم النافعة، ولا تلين لإعطاء الأعمال الصالحة. **وأما النوع الثاني**: فلا يخلوا إما أن يكون الحق ثابتًا فيه لا يزول عنه لقوته مع لينه، أو يكون ثابتًا مع ضعف، وانحلال.

والثاني: هو القلب المريض، والأول هو الصحيح المخبت، وهو جمع الصلابة، والصفاء، واللين فيبصر الحق بصفائه، ويشتد فيه بصلابته، ويرحم الخلق بلينه، كما قال تعالىٰ في أصحاب هذه القلوب: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] فهذا وصف منه للمؤمنين الذين عرفوا الإيمان بصفاء

=

أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحج: ٥٢، ٥٣].

قلوبهم، واشتدوا علىٰ الكفار بصلابتها، وتراحموا فيما بينهم بلينها...

وأما اللام في قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فلام التعليل علىٰ بابها فإنها مذكورة في بيان حكمته في جمع أوليائه، وأعدائه علىٰ غير ميعاد، ونصرة أوليائه مع قلتهم، ورقتهم، وضعف عددهم، وعدتهم علىٰ أصحاب الشوكة، والعدد، والحد، والحديد الذي لا يتوهم بشر أنهم ينصرون عليهم، فكانت تلك آية من أعظم آيات الرب سبحانه صدق بها رسوله وكتابه، ليهلك بعدها من اختار لنفسه الكفر والعناد عن بينة، فلا يكون له علىٰ الله حجة، ويحيي من حي بالإيمان بالله ورسوله عن بينة فلا يبقىٰ عنده شك، ولا ريب وهذا من أعظم الحكم ونظير هذا قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

... **النوع الثالث: الإتيان بكي الصريحة في التعليل كقوله تعالىٰ:** ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

فعلل سبحانه تسمية الفيء بين هذه الأصناف كي لا يتداوله الأغنياء دون الفقراء، والأقوياء دون الضعفاء، وقوله سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ

وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

فأخبر سبحانه أنه قدر ما يصيبهم من البلاء في أنفسهم قبل أن يبرأ الأنفس، أو المصيبة، أو الأرض، أو المجموع وهو الأحسن ثم أخبر أن مصدر ذلك قدرته عليه، وأنه يسير عليه، وحكمته البالغة التي منها أن لا يحزن عباده علىٰ ما فاتهم...

النوع الرابع ذكر المفعول له وهو علة للفعل المعلل به، كقوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ [النحل: ٨٩] ، ونصب ذلك علىٰ المفعول له أحسن من غيره كما صرح به في قوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٤] ، وفي قوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠] ، فإتمام النعمة هو الرحمة. وقوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ [القمر: ١٧]؛ أي: لأجل الذكر، كما قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، وقوله: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ﴿٦﴾﴾ [المرسلات: ٥، ٦]، أي للإعذار والإنذار...

النوع الخامس: الإتيان بأن والفعل المستقبل بعدها تعليلا لما قبله.

كقوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦]،

وقوله: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ [الزمر: ٥٦]، وقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ، ونظائره. وفي ذلك **طريقان، أحدهما:** للكوفيين والمعنىٰ لئلا تقولوا، ولئلا تقول نفس، **والثاني:** للبصريين أن المفعول له محذوف أي: كراهة أن تقولوا، أو حذار أن تقولوا.

فإن قيل: كيف يستقيم الطريقان في قوله تعالىٰ: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ، فإنك إن قدرت لئلا تضل إحداهما لم يستقم العطف، فتذكر إحداهما عليه، وأن قدرت حذار أن تضل إحداهما لم يستقم العطف -أيضًا-، وإن قدرت إرادة أن تضل لم تصح -أيضًا-، قيل هذا من الكلام الذي ظهور معناه مزيل للإشكال، **فإن المقصود:** إذكار إحداهما الأخرىٰ إذا ضلت، ونسيت، فلما كان الضلال سببًا للإذكار جعل موضع العلة، كما تقول: أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه بها، فإنما أعددتها للدعم، لا للميل، وأعددت هذا الدواء أن أمرض فأتداوىٰ به، ونحوه. وهذا قول سيبويه والبصريين.

النوع السادس: ذكر ما هو من صرائح التعليل، كقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

النوع السابع: التعليل بلعل وهي في كلام الله سبحانه وتعالىٰ للتعليل مجردة عن معنىٰ الترجي فإنها إنما يقارنها معنىٰ الترجي إذا كانت من المخلوق، وأما في حق من لا يصح عليه الترجي فهي للتعليل المحض، كقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

فقيل: هو تعليل لقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾. **وقيل**: تعليل لقوله ﴿خَلَقَكُمْ﴾، **والصواب أنه**: تعليل للأمرين: لشرعه، وخلقه. ومنه قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣] وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف:٢]، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٤]. فلعل في هذا كله قد أخلصت للتعليل، والرجاء الذي فيها متعلق بالمخاطبين...

النوع الثامن: ذكر الحكم الكوني والشرعي عقيب الوصف المناسب له.

وتارة يذكر بأن، وتارة يقرن بالفاء، وتارة يذكر مجردًا، فالأول كقوله: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

والثاني كقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: ٣٨].

والثالث كقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥﴾ [الحجر:٤٥].

وهذا في التنزيل يزيد على عدة آلاف موضع، بل القرآن مملوء منه، **فإن قيل**: هذا إنما يفيد كون تلك الأفعال أسبابًا لما رتب عليها لا يقتضي إثبات التعليل في فعل الرب وأمره فأين هذا من هذا قيل لما جعل الرب سبحانه هذه الأوصاف عللا لهذه الأحكام وأسبابا لها دل ذلك على أنه حكم بها شرعًا وقدرًا لأجل تلك الأوصاف، وأنه لم يحكم بها لغير علة، ولا حكمة، ولهذا كان كل من نفى التعليل، والحكم نفى الأسباب ولم يجعل لحكم الرب الكوني والديني سببًا! ولا حكمة هي العلة الغائية، وهؤلاء ينفون الأسباب، والحكم ومن تأمل شرع الرب وقدره وجزاءه جزم جزمًا ضروريًا ببطلان قول النفاة.

النوع التاسع: تعليله سبحانه عدم الحكم القدري، والشرعي بوجود المانع منه، كقوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ﴾ [الزخرف: ٣٣] ﴿۞وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾ [الشورى:٢٧]، وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]...

النوع العاشر: إخباره عن الحكم، والغايات التي جعلها في خلقه، وأمره.

قوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ

مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ ﴾ [البقرة: ٢٢]وقوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ٩ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١﴾ [النبأ: ٦-١١] إلىٰ قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦﴾ [النبأ: ١٤-١٦]...

النوع الحادي عشر: إنكاره سبحانه علىٰ من زعم أنه لم يخلق الخلق لغاية، ولا لحكمة.

كقوله: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦﴾ [القيامة:٣٦]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾[الدخان: ٣٩]

[ومن ذلك] ...حمده سبحانه لنفسه علىٰ جميع ما يفعله، وأمره عباده بحمده، وهذا لما في أفعاله من الغايات، والعواقب الحميدة التي يستحق فاعلها الحمد، فهو يحمد علىٰ نفس الفعل، وعلىٰ قصد الغاية الحميدة به، وعلىٰ حصولها، فههنا ثلاث أمور.

[بهذا وغيره ثبت التعليل لأفعال الله تعالىٰ وبطل الجواب علىٰ إشكالات من استشكل الشر بنفيه، وثبوت التعليل في أحكامه وأفعاله سبحانه وتعالىٰ يمثل ركنا هامًا بعد الأصول الخمس التي قدمنا في الرد علىٰ كلا الطائفتين، **أحدهما:**

من ضل في جوابه علىٰ مستشكلين وجود الشر في هذا الدار، **والثانية:** المستشكلين أنفسهم].

... ومعلوم أن تعطيل الحكمة، والغاية المطلوبة بالفعل **إما أن يكون لعدم علم الفاعل بها**، أو تفاصلها، وهذا محال في حق من هو بكل شيء عليم.

وأما لعجزه عن تحصيلها، وهذا ممتنع في حق من هو علىٰ كل شيء قدير.

وأما لعدم إرادته ومشيئته الإحسان إلىٰ غيره، وإيصال النفع إليه، وهذا مستحيل في حق أرحم الراحمين ومن إحسانه من لوازم ذاته فلا يكون إلا محسنًا، منعمًا، منانًا.

وأما لمانع يمنع من إرادتها، وقصدها وهذا مستحيل في حق من لا يمنعه مانع عن فعل ما يريد.

وأما لإستلزامها نقصًا، ومنافاتها كمالا، وهذا باطل بل هو قلب للحقائق وعكس للفطر، ومناقضة لقضايا العقول فإن من يفعل لحكمة، وغاية مطلوبة يحمد عليها أكمل ممن يفعل لا لشيء البتة، كما أن من يخلق أكمل ممن لا يخلق، ومن يعلم أكمل ممن لا يعلم، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، ومن يقدر ويريد أكمل ممن لا يتصف بذلك، وهذا مركوز في الفطر مستقر في العقول فنفي حكمتة بمنزلة نفي هذه الأوصاف عنه، وذلك يستلزم وصفه بأضدادها،

وهي أنقص النقائص.

وجماع ذلك: إن كمال الرب تبارك تعالىٰ وجلاله، وحكمته، وعدله، ورحمته، وقدرته، وإحسانه، وحمده، ومجده، وحقائق أسمائه الحسنىٰ تمنع كون أفعاله صادرة منه لا لحكمة، ولا لغاية مطلوبة، وجميع أسمائه الحسنىٰ تنفي ذلك، وتشهد ببطلانه، وإنما نبهنا علىٰ بعض طرق القرآن، وإلا فالأدلة التي تضمنها إثبات ذلك أضعاف أضعاف ما ذكرنا.

وكيف يتوهم ذو الفطرة صحيحة خلاف ذلك، وهذا الوجود شاهد بحكمته، وعنايته بخلقه، أتم عناية وما في مخلوقاته من الحكم، والمصالح، والمنافع، والغايات المطلوبة، والعواقب الحميدة أعظم من أن يحيط به وصف، أو يحصره عقل، ويكفي الإنسان فكره، وخلقه، وأعضائه، ومنافعها، وقواه، وصفاته، وهيأته فإنه لو استنفد عمره لم يحط علمًا بجميع ما تضمنه خلقه من الحكم، والمنافع علىٰ التفصيل، والعالم كله علويه، وسفليه بهذه المثابة، ولكن لشدة ظهور الحكمة ووضوحها وجد الجاحد السبيل إلىٰ إنكارها، و هذا شأن النفوس الجاهلة الظالمة، كما أنكرت وجود الصانع تعالىٰ مع فرط ظهور آياته، ودلائل ربوبيته، بحيث استوعبت كل موجود، ومع هذا فسمحت بالمكابرة في إنكاره!

وهكذا أدلة علوه سبحانه فوق مخلوقاته، مع شدة ظهورها سمحت نفوس الجهمية بإنكارها، و هكذا سواها كصدق أنبيائه، ولا سيما خاتمهم صلوات الله وسلامه عليه فإن أدلة صدقه في الوضوح للعقول كالشمس في دلالتها علىٰ النهار، ومع هذا فلم يأنف الجاحدون، والمكابرون من الإنكار.

وهكذا أدلة ثبوت صفات الكمال لمعطي الكمال، هي من أظهر الأشياء وأوضحها، وقد أنكرها من أنكرها، ولا يستنكر هذا فإنك تجد الرجل منغمسًا في النعم، وقد أحاطت به من كل جانب، وهو يشكي حاله، ويسخط مما هو فيه وربما أنكر النعمة.

فضلال النفوس، وغيها لا حد له تنتهي إليه ولا سيما النفوس الجاهلة الظالمة، ومن أعجب العجب أن تسمح نفس بإنكار الحِكم، والعلل الغائية، والمصالح التي تضمنها هذه الشريعة الكاملة، التي هي من أدل الدلائل علىٰ صدق من جاء بها، وأنه رسول الله حقًا، ولو لم يأت بمعجزة سواها لكانت كافية، شافية.

فإن ما تضمنته من الحكم، والمصالح، والغايات الحميدة، والعواقب السديدة، شاهدة بأن الذي شرعها، وأنزلها أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين وشهود ذلك في تضاعيفها، ومضمونها كشهود الحكم، والمصالح، والمنافع في المخلوقات العلوية، والسفلية، وما بينهما من الحيوان، والنبات، والعناصر، والآثار

التي بها انتظام مصالح المعاش فكيف يرضىٰ أحد لنفسه إنكار ذلك وجحده...

[وحاصل جوابنا، مما مر، أن نقول:] قد اقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن أقام في هذا العالم لكل حق جاحدًا، ولكل صواب معاندًا، كما أقام لكل نعمة حاسدًا، ولكل شر رائدًا، وهذا من تمام حكمته الباهرة، وقدرته القاهرة، ليتم عليه كلمته، وينفذ فيهم مشيئته، ويظهر فيهم حكمته، ويقضي بينهم بحكمه، ويفاضل بينهم بعلمه، ويظهر فيهم آثار صفاته العليا، وأسمائه الحسنىٰ، ويتبين لأوليائه، وأعدائه يوم القيامة أنه لم يخل لحكمة، ولم يخلق خلقه عبثًا، ولا يتركهم سدًا، وأنه لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا، وأن له الحمد التام الكامل علىٰ جميع ما خلقه، وقدره وقضاه، وعلىٰ ما أمر به، ونهىٰ عنه، وعلىٰ ثوابه، وعقابه، وأنه لم يضع من ذلك شيئًا إلا في محله الذي لا يليق به سواه.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل: ٣٨، ٣٩].

وإذا تبين لأهل الموقف، ونفذ فيهم قضاؤه الفصل، وحكمه العدل نطق الكون أجمعه بحمده، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وجواب هذه الأسئلة من وجوه، أحدها: أن الحكمة إنما تتعلق بالحدوث، والوجود.

والكفر، والشرور، وأنواع المعاصي راجعة إلىٰ مخالفة نهي الله، ورسوله وترك ما أمر به، وليس ذلك من متعلق الإيجاد في شيء، ونحن إنما التزمنا أن ما فعله الله، وأوجده فله فيه حكمة، وغاية مطلوبة، وأما ما تركه سبحانه، ولم يفعله فإنه، وإن كان إنما تركه لحكمة في ذلك فلم يدخل في كلامنا فلا يرد علينا، **وقد قيل**: إن الشر ليس إليه بوجه، فإنه عدم الخير، وأسبابه، والعدم ليس بشيء كاسمه.

فإذا قلنا: إن أفعال الرب تعالىٰ واقعة، وغاية محمودة لم يرد علينا تركه، يوضحه الجواب الثاني.

الجواب الثاني: وهو أنه سبحانه قد يترك ما لو خلقه لكان في خلقه له حكمة، فيتركه لعدم محبته لوجوده، أو لكون وجوده يضاد ما هو أحب، أو لاستلزام وجوده فوات محبوب له آخر، وعلىٰ هذا فتكون حكمته في عدم خلقه أرجح من حكمته في خلقه، والجمع بين الضدين مستحيل فرجح سبحانه أعلىٰ الحكمتين بتفويت أدناهما، وهذا غاية الحكمة فخلقه، وأمره مبني علىٰ تحصيل المصالح الخالصة، أو الراجحة بتفويت المرجوحة التي لا يمكن الجمع بينها وبين تلك الراجحة وعلىٰ دفع المفاسد الخالصة، أو الراجحة وإن وجدت

المفاسد المرجوحة التي لا يمكن الجمع بين عدمها، وعدم تلك الراجحة، وخلاف هذا هو خلاف الحكمة، والصواب.

الجواب الثالث: أن يقال: غاية ذلك انتفاء الحكمة في هذا النوع من المقدورات فيلزم من ذلك انتفاؤها في جميع خلقه، وحكمه فهب أن هذا النوع لا حكمة فيه فمن أين يستلزم ذلك نفي الحكمة، والغرض في كل شيء كيف وفيه من الحكم والغايات المحمودة ما هو معلوم لأهل البصائر الراسخين في العلم.

الجواب الرابع: أنا لم ندع حكمة يجب أو يمكن اطّلاع الخلق علىٰ تفاصيلها، فإن حكمة الله أعظم، وأجل من ذلك فما المانع من اشتمال ما ذكرتم من الصور وغيرها علىٰ الحكم حجة ينفرد الله بعلمها كما قال للملائكة وقد سألوه عن ذلك: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فمن يقول بلزوم الحكمة لأفعاله وأحكامه مطلقًا لا يوجب مشاركة خلقه له في العلم بها.

الجواب الخامس: أن الله سبحانه ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وله في جميع ما ذكرتم وغيره حكمة ليست من جنس الحكمة التي للمخلوقين كما أن فعله ليس مماثلًا فعلهم، ولا قدرته، وإرادته، ومشيئته، ومحبته، ورضاه، وغضبه مماثلًا لصفات المخلوقين.

الجواب السادس: أن الحكمة تابعة للعلم، والقدرة فمن كان أعلم، وأقدر

كانت أفعاله أحكم، وأكمل، والرب منفرد بكمال العلم، والقدرة فحكمته بحسب علمه، وقدرته كما تقدم تقريره فحكمته متعلقة بكل ما تعلق به علمه، وقدرته.

الجواب السابع: أن الأدلة القاطعة قد قامت علىٰ أنه حكيم في أفعاله، وأحكامه فيجب القول بموجبها، وعدم العلم بحكمته في الصور المذكورة لا يكون مسوغًا لمخالفة تلك الأدلة القاطعة، لا سيما وعدم العلم بالشيء لا يستلزم العلم بعدمه.

الجواب الثامن: أن كماله المقدس يمنع خلو هذه الصور التي تقصيتم عن الحكمة، وكماله أيضا يأبىٰ إطلاع خلقه علىٰ جميع حكمته، فحكمته تمنع إطلاع خلقه علىٰ جميع حكمته بل الواحد منا لو أطلع غيره علىٰ جميع شأنه وأمره عد سفيها جاهلًا، وشأن الرب أعظم من أن يطلع كل واحد من خلقه علىٰ تفاصيل حكمته.

الجواب التاسع: أنكم إما أن تعترفوا بأن له حكمة في شيء من خلقه، وأمره أو تنكروا أن يكون له في شيء من خلقه وأمره حكمة، فإن أنكرتم ذلك وما هو من الظالمين ببعيد كذبتم جميع كتب الله، ورسوله، والعقل، والفطرة، والحس، وكذبتم عقولكم، قبل تكذيب العقلاء فإن جحد حكمة الله الباهرة في خلقه، وأمره بمنزلة جحد الشمس، والقمر، والليل، والنهار...

الجواب العاشر: أن العقلاء قاطبة متفقون علىٰ أن الفاعل إذا فعل أفعالا ظهرت فيها حكمته، ووقعت علىٰ أتم الوجوه، وأوفقها للمصالح المقصودة بها ثم إذا رأوا أفعاله قد تكررت كذلك ثم جاءهم من أفعاله ما لا يعلمون وجه حكمته فيه لم يسعهم غير التسليم لما عرفوا من حكمته واستقر في عقولهم منها وردوا منها ما جهلوه إلىٰ محكم ما علموه هكذا نجد أرباب كل صناعة مع أستاذهم.

الجواب الحادي عشر: أن الحكمة إنما تتم بخلق المتضادات، والمتقابلات، كالليل، والنهار، والعلو، والسفل، والطيب، والخبيث، والخفيف، والثقيل، والحلو، والمر، والبرد، والألم، واللذة، والحياة، والموت، والداء، والدواء، فخلق هذه المتقابلات هو محل ظهور الحكمة الباهرة، ومحل ظهور القدرة القاهرة، والمشيئة النافذة، والملك الكامل التام» [(١)].

ثم أطال شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيانه، وجوابه، حتىٰ بلغ بذلك وجوهًا كثيرة تقع في مجلد كبير!، والمقصود من إيراد مطلع كلامه هنا إحالة القراء علىٰ طريقة أهل العلم، في جواب مثل هذه المعضلات الزائفة، وكيف ينتقلون في جوابهم بين المعقول، والمنقول، والمشاهد، والمغروز في طبائع النفوس، أسأل الله تعالىٰ أن يرحم علمائنا رحمة واسعة.

---

(١) شفاء العليل (٣/ ٩٧٣ -١١٦٥).

الخاتمة

هذه الرسالة المتخصرة، الميسَّرة؛ ما هي إلا ومضات للمستبصرين، وتنبيه للغافلين، وإنذار للمغترين، ونصيحة لأهل الحق أن يشرعوا في بيانه، وأن ينبهوا علىٰ كماله، وأن يحاجوا بالحق من دعاهم للباطل؛ ببيان بطلان ما يحمله خصومهم بالمقارنة تارة، وبالمحاجة تارات، ولم أنسب في رسالتي هذه للخصم شيئًا إلا بعد أن سمعت من مفكِّريهم، وقرأت لمنظريهم، وجالست بعض المتأثرين بهم في نقاش هادئ هادف، قد أضاء لي - أولًا - خطة هؤلاء في الهدم، ومقصودهم فيه.

وقد انتهت فصول كتابنا بعد أن عرجت فيها علىٰ بيان التوحيد وصفة أهله، وبيان الإلحاد وصفة المنتسبين له، وبيان حقيقة الصراع وصفات كلا الفريقين، ثم التعريف بما ينتظره العالم من الإلحاد وما عساه أن يقدمه للبشرية، وبيان الحياة في ضوء التوحيد ونهاره الساطع وما قدَّمه الإسلام ويقدِّمه للبشرية، ثم تكلمتُ عن معضلة يظن القوم أنها طوق نجاتهم؛ ألا وهي ما يسمىٰ بمشكلة الشر (Problem of Evil) وما قدمه الإلحاد لعلاجها، وكيف وقف عاجزًا عن فهمها وتوصيفها، وكيف غالط الملحدون - مستبيحين ذلك - العامة في ذلك، مع نقاش مختصر يوضِّح ملامح هذه القضية، ويظهرها لغير فاهميها، وفي

المطولات[1] لمن أراد التوسع غنية، ثم ختمتها ببيان طريقة أهل الإسلام في فهمها، وتوجيه القول فيها، وحقيقة اعتقادهم في ربهم، وفي قضاءه، وقدره، بعيدًا عن زيغ من زاغ من أهل الملل والنحل، وفيه اختصار لبديع ما كتب الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العظيم «شفاء العليل».

* * *

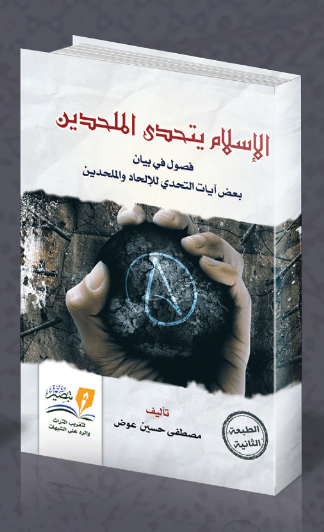
(١) وقد استفدت من الأبحاث المعاصرة المترجمة، والمصنفة من الباحثين المنشغلين بهذا المضمار - أسأل الله أن يوفقهم لنصر دينه وسنة نبيِّه ﷺ -.

الفهرست

* * *

من إصداراتنا







اقرأ في هذا الكتاب

تعرف على حقيقة التوحيد ، وحقيقة الإلحاد ، وحال أهل كلٍ منهما .

ما هو تاريخهم ؟ وما ينتظرونه في مستقبلهم ؟

كيف يعيشون ؟ وما هي مبادئهم ؟ وما هي سماتهم ؟

وماذا قدموا للبشرية ؟ وماذا عساهم أن يقدموا ؟

وقفات ميسرة تلقي الضوء على حقيقة هذا الصراع المحتدم .

المؤلف

